سِحرُ الحكي ومُتعةُ التأويل

أيامي القاهرية

محمد جبريل

حكايا
سحر الحكي ومتعة التأويل

أيامي القاهرية

محمد جبريل

المواد المنشورة تُعبِّر عن آراء كُتَّابها ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي الموقع

تصميم الغلاف

موقع حكايا للرواية العربية

نشر موقع حكايا للرواية العربية

Hakaya.co

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى (طبعة إليكترونية) أكتوبر ٢٠١٥

أيامي القاهرية

محمد جبريل

أيامُ جبريل القاهريَّة

بقلم / د. زينب العسال

"الإسكندرية لم تَضِعْ مِنِّي"، هكذا يُنهي جبريل مقدمة كتابه "أيامي القاهرية"، وكأنه يعتذر لرحيله عن مدينته الإسكندرية متجهًا إلى القاهرة.

كيف يطلق جبريل على سنوات فاقت الخمسين، قضاها في القاهرة، أيامًا؟

هو لا يرى في هذه السنوات تأثيرًا كبيرًا في حياته ووجدانه، الذي شكلته شوارع وحارات بحري، فضلا عن مناطق الإسكندرية بشكل عام، هذا ما سيلحظه قارئ هذا الكتاب.

"سيرتي الذاتية -على نحوٍ ما- تعبر عن الحنين، في يقيني أن الحنين دافع مهم لكل مبدع"، هكذا يعبر جبريل عن معنى كتابته للسيرة الذاتية، لكن كتاب "أيامي القاهرية" يطالعنا بسيرة غيرية، فالحديث عن أماكن وشخصيات وقضايا، هي لحمة وسدى هذا الكتاب.

أيام هذا الكتاب تختلف عما عاشه جبريل في طفولته وصباه، "ربما غاب الحنين الذي يشدني إلى أعوام العيش في بحري، بل لعلي أعترف أني لم أكن فيها مشاركًا"، كان شاهد عيان أو "شاهدًا على العصر" أو غيرهما من التسميات المتداولة. يبدأ جبريل الحديث عن القاهرة ولقائه بالشخصيات الأدبية المرموقة، حاول أن يصل إليها لتساعده في العمل الصحفي. ثمة سعد الدين وهبة، أحمد عباس صالح، نعمان عاشور، د. علي الراعي، يوسف إدريس، وغيرهم.

هل لنفو "الخالة" التي تقطن في مصر الجديدة من وجود ابن الأخت في بيتها؟

أعلنت عن ذلك -صراحة- بعد ثلاثة أيام، فالبيت لرجل غريب.

يعقب جبريل بأن لهذه الخالة التي عاشت في بيت والده إلى أن أدركها سوق الزواج دورًا في الإحساس بأن القاهرة لم تكن يومًا مكانًا يحن إليه.

أعرف مدى حب محمد جبريل للمكان، ليس أي مكان، بل الأماكن الأثرية الحميمة، أتذكر أيام التعارف الأولى، حينما كنا نتجول في مدينة مسقط القديمة وسوق مطرح ومدينة نزوى، لم أعرف يومها أن محمد جبريل كان يحتشد لكتابة عمله الإبداعي الذي أهداه لي "إمام

آخر الزمان. لا ينبهر جبريل بالبنايات الحديثة الشاهقة، أو الأماكن الباذخة، قدر اهتمامه بما يحمل في طياته من عبق التاريخ، المساجد، الخنقاوات، الأسبلة، الزوايا، المقامات، الأضرحة، وكل ما هو شعبي، "هكذا أحببت حي بحري بكل ما فيه".

فالإسكندرية عند محمد جبريل هي "ب ح ر ي".

المكان عند جبريل ليس مجانيًّا، هو مكان لمعرفة قسمات المكان: العادات والمعتقدات والتقاليد، وتلمس حياة البشر، ورسم صورة لهم، والقرب منهم، أو البعد عنهم، لكن في كل الأحوال المكان شخصية فاعلة، بالإضافة إلى أنه أحد المكونات الفنية في إبداعه.

عندما يتحدث عن بحري (الأنفوشي، والسيالة، ورأس التين) يظهر المخزون الذي ظل في داخله ووجدانه، استند إليه في كتابة رواياته "رباعية بحري، أهل البحر، زمان الوصل، قاضي البهار ينزل البحر، المينا الشرقية" وغيرها. وتطالعنا فيها حلقة السمك بملامحها جميعها، وجبريل دائم التردد على حلقة السمك.

ظهور الخرساء في حياة جبريل فجأة بعد أن عاش مع أسرة من الصيادين، هذه الشخصية الغريبة ليس فيما تعانيه من عاهة "الخرس" بل ما تمارسه في حياتها، وصار وظيفة لها. كيف تتعامل هذه المرأة مع زبائنها؟ يُجيب محمد جبريل: إنها لغة الجسد، هذه اللغة العالمية التي يُجيدها كل البشر!

بيئة الصيادين بيئة مغايرة تمامًا لبيئة الموظفين والتجار التي تربى وعاش فيها جبريل (٥٤ شارع إسماعيل صبري)، هذا هو بيت محمد جبريل الذي عاش فيه، لكننا نعرف -لأول مرة- أنه ولد في البيت المقابل، ونقل إلى ٥٤ شارع إسماعيل صبري بعد شهر من ولادته.

سينتقل محمد جبريل بعد وفاة والديه، وإعلان أخيه الأكبر عن رغبته في انفراده بالشقة، إلى شقق أخرى. يتحول هذا الموقف باعثًا لسكن بطل رواية "الشاطئ الآخر" حاتم رضوان مع أسرة يونانية في حي العطارين، حينما كانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية يتعايش فيها كافة الجاليات الأجنبية.

لم تحظَ القاهرة باهتمام في روايات محمد جبريل، اللهم إلا القاهرة القديمة في رواية "قلعة الجبل"، ورواية "الجودرية"، ورواية "كوب شاي بالحليب" تدور أحداث الرواية في بنسيون يقع في شارع فهمي القريب من ميدان باب اللوق، كان البنسيون جامعة دول عربية مصغرة، سكنه سوريون وفلسطينيون ولبنانيون وسودانيون و-بالطبع- مصريون. بدت الحياة مغايرة تمامًا لما ألفه جبريل في الإسكندرية، لقاءات وحكايات ومناقشات في كل شيء، واهتمام بالجنس عبّر عنه صاحب البنسيون في رواية "كوب شاى بالحليب" بقوله: "كل البنسيونات تجري فيها أمور لا تليق، أما هذه الشقة فقد تحولت إلى ماخور".

ملَّ جبريل تلك الأماكن التي عاش فيها منفردًا، كان الحل هو أن يسكن مع عمته في ضاحية حلوان، وكانت العمة قد استضافت من قبل الأخ الأصغر، لكنّ بُعدَ المكان عن جريدة "الجمهورية" وضجيج المترو حالا دون العيش في بيت العمة الحنون، ينتقل جبريل إلى منازل أخرى في جزيرة بدران والشوارع المحيطة، لكنه يتوقف أمام بيت أرض شريف، بيت الزوجية، يطيل التحدث عن عمارتي يافا وحيفا، لا تستغرب الاسم فصاحب العمارتين رجل فلسطيني، وكما سبق القول، فإن المكان يلامس وجدان جبريل، ذلك ما تحقق في قربه من شارع محمد علي الذي يقطنه العوالم والآلاتية والتدريبات استعدادًا للحفلات، عالم شديد الاختلاف عما عرفه محمد في طفولته وصباه وشبابه [قرأت على الكمبيوتر مسودات روايته التي لم تنشر "سكة المناصرة"]، عالم أميل إلى القسوة، أو الشراسة، الجيران يقاسمون بعضهم البعض أدق التفاصيل، لم يقدر جبريل وزوجه العيش في المكان، وحين غادر الزوجان الشابان المكان، ودعهما الجيران بعبارة "والله كنتم ناس طيبين".

ينتقل جبريل إلى ضاحية مصر الجديدة يسكن في شقة وُصفت بأنها يرمح فيها الخيل بالنسبة لشقة عمارة يافا، وفي أوائل الثمانينيات ينتقل جبريل للعيش في ١٨ شارع سليمان عزمي إلى الآن، بيتنا الذي عشت فيه أكثر من ثلاثين عامًا، لم يكتب عن هذا البيت في قصة، ولا في رواية، بينما نقل القاص محمد إبراهيم طه إلى شقتنا أحداث روايته "توتة مائلة على نهر".

في كل حوار يجري مع جبريل يقول: "أنا قارئ قبل كل شيء، يعترف بأن مكتبة والده كان لها الفضل الأول في تنمية موهبته وحبه للقراءة، والصنايعي في دكان الترزي الذي أرشده لقراءة سلامة موسى. وثمة مكتبة النن، ومكتبة البلدية، ومكتبات أخرى في الإسكندرية، وحينما سافر إلى القاهرة كانت دار الكتب. روى جبريل أول معرفته بإبداع نجيب محفوظ في فرع مكتبة دار الكتب بالمنيرة، ودور هذه المكتبة في مشروعه النقدي الكبير "مصر في قصص كتّابها المعاصرين"، صدر الجزءان الأول والثاني، وما زال صدور الجزء الثالث متعثرًا خمس سنوات داخل دهاليز هيئة الكتّاب!.

عِشْقُ الكِتَاب مرضٌ نقله لي جبريل على امتداد ما يزيد عن ثلاثين عامًا، صديقين وزوجين، حينما يزور بيت صديق، يقف طويلا أمام مكتبته، يتصفح الكتب، وعندما يقتني الكتّاب يصير بينه وبين الكتّاب صداقة. إذا تعبتُ في العثور على الكتّاب، يصف لي حجم الكتّاب، لون الغلاف، الناشر، الرف الموجود فيه الكتّاب، فإذا فشلت محاولتي في العثور عليه، مد يده لأحد الأرفف، لتعود بالكتّاب. ثروة جبريل تكمن في هذه المكتبة العامرة بكنوز من الكتب النادرة، والطبعات الأولى لروايات مجهولة، وكتب مهداة من زعماء سياسيين لوالده، وكتب تراث، وأعداد أولى من دوريات صدرت في القرن الماضي.

بالمناسبة: لاحظنا وجود العديد من طبعات الكتب، أهدى جبريل ما يشكل مكتبات صغيرة لأصدقاء أعزاء، كم تأثرتُ لمّا نصح بعض الأصدقاء أن يُهدي جبريل مكتبته الكبيرة لإحدى الجامعات، قال جبريل: "هذه المكتبة لزينب العسال".

والحقيقة أنني أفدتُ من مكتبة جبريل ومصادرها، ومراجعها، كتبها، ودورياتها، جرائدها، في إنجاز رسالَتَي الماجستير والدكتوراه.

سور الأزبكية.. مكان يحبه جبريل، نزوره كثيرًا، فالمكان قريب من منزل أسرتي في حي الأزهر، نتفق -جبريل وأنا- على حبنا لهذه المنطقة، يتجه جبريل للسور، لا يمل الوقوف أمام فرشات الكتب القديمة، قد يمضي ساعات طويلة دون ملل، أشعر بالقلق عندما يزداد عدد الكتب، ونثقل الربطة في يده، أنبه أين سنضع كل هذه الكتب؟ يتجاهل ملاحظتى،

ويتحدث -متحمسًا- عن أهمية هذه الكتب في الرجوع إليها، أو أن موضوعات هذه الكتب جديدة، يجب علينا قراءتها.

تقلص حجم فرشات كتب سور الأزبكية لصالح محلات الكاسيت والصور المقلدة والملابس، وقرن جبريل حزنه لما حدث، بتذكر أسواق الكتب القديمة في البلدان التي زارها في أوروبا أو الأقطار العربية.

يحدثني -في أكثر من مناسبة- عن الحقيبة الكبيرة التي أتى بها عند سفره إلى القاهرة، كانت مملوءة بكتب من مكتبة والده، وعندما عاكسته الظروف وجد في هذه الكتب ضالته، يصر ربطة ويتجه إلى السوق.

عندما بدأ جبريل في الإعداد لكتابه "مصر في قصص كتابها المعاصرين"، كان لا بد من التردد على سور الأزبكية، للبحث عن الجزر المجهولة في القصة القصيرة والرواية.

ذلك الجيل: يقدم جبريل شهادة خطيرة عن علاقته وعلاقة جيل الأربعينيات بعضهم البعض، أسرار يرويها لأول مرة، كما نظن أن ذلك الجيل مغاير في علاقته وسلوكياته وآرائه لجيل الستينيات، وما شاب علاقاته من ظواهر سلبية ممثلة في الشللية، والإقصاء، والتطاحن، والبعد عن الموضوعية، وغيرها من الأمراض المنتشرة في حياتنا الثقافية اليوم!..

أذكرك بأن جبريل تناول هذا الجيل في كتابيه "آباء الستينيات" و"نجيب محفوظ صداقة جيلين" عبر فيهما عن أبوتهم له، ورأيه في كتاباتهم وعلاقته الوثيقة بهم، وحبه لهم على المستوى الإنساني.

تعرفت إلى ذلك الجيل من روايات جبريل أثناء إقامتنا في سلطنة عمان، أذكر أني أعربت عن أمنيتي في أن ألتقي الأستاذ نجيب محفوظ، وتحققت هذه الأمنية، كانت الصدفة وحدها هي التي دبرت الأمر. كنت أكتب عن الناشر وكاتب الأطفال سعيد السحار، وهي صفة لم يعرفها عنه الكثيرون، كتب السحار عشرات الكتب العلمية والحكايات والقصص والترجمات، كان الكتاب يتضمن شهادات لمن تبقى من أصدقاء الرجل، ذهبت إلى الأستاذ نجيب محفوظ في بيته، أجريت الحوار، وقامت السيدة حرمه بالتقاط عدة صور تذكارية معه.

قبل أن أقابل صاحب العبارة الشهيرة، والموجة الجديدة في الإبداع القصصي، محمد حافظ رجب، كنت قد عرفت الكثير عنه، تعجبت كيف لهذا المبدع السكندري أن يوقظ بخياله -دون أن يغادر موطنه أو يتعرف إلى الآداب العالمية، والكتابات المغايرة- خيال المبدعين الكبار، ويترك بصمة في تاريخ الأدب العربي يصعب إغفالها؟.

يرى محمد جبريل أن نجيب محفوظ أفاد مما قدمه محمد حافظ رجب، فلولاه ما كتب روايته "ثرثرة فوق النيل". يبدأ جبريل بتصحيح مفهوم عبارة "نحن جيل بلا أساتذة" فلا يعني صاحبها أنه ينكر تلمذته على إبداع الآخرين، هذا رأي لا يصدر عن عاقل، لكن المعنى الحقيقي أن ما جاء به هذا الجيل من إبداع لم يسبقه غيره من الأجيال السابقة. أحب جبريل محمد حافظ رجب ليس لأنه بلدياته، ولكن لأن حافظ رجب كان طيباً نقيًّا من نفس عجينة جبريل، ثمة رسائل كثيرة متبادلة بين جبريل ورجب تروي حكايات وأسرار وشت بصداقة متينة وصراحة نادرة بين الاثنين، إذا كان جبريل قد نشر بعضها في جريدة القاهرة، فإني أتمنى أن تنشر باقي هذه الرسائل.

جاء محمد حافظ رجب من الإسكندرية إلى القاهرة مثل العديد من الأدباء، ألحقه يوسف السباعي بوظيفة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، لكن الأمور لم تسر على هوى محمد حافظ رجب، كبلت الوظيفة الفنان، وصارت عبئًا نفسيًّا عليه، والبقية أنت تعرفها عزيزى القارئ.

يعترف جبريل بأنه واجه -أحيانًا- تلك العلاقة بين أبناء جيل الأربعينيات، وبالذات مجموعة لجنة النشر للجامعيين، بالكثير من التساؤل والدهشة وعدم الفهم، وداخله شعور بالصدمة.

تبين جبريل عند إعداده كتابه "مصر في قصص كتابها المعاصرين" الذي استغرق أكثر من أحد عشر عامًا، أن رواية "في قافلة الزمان" سبقت الثلاثية، وعندما قدم مسودات الكتاب إلى نجيب محفوظ، أبدى موافقته على منهج الدراسة بعامة، لكن ملاحظته الوحيدة التي وقف عندها، هي أنه ربما "بين القصرين" تسبق "في قافلة الزمان". يروي محمد جبريل الحكاية من أولها، وينتهي إلى القرار الذي اتخذه محفوظ بألا يطلع أحدٌ على ما ينوي إنجازه (نصيحة أتذكر

أن صديقة أسدتها لي وأنا أعد بحثي لنيل درجة الماجستير). الغريب أن السحار هو الآخر يروي لجبريل أن محفوظ أدرك -لسبب ما- أن السحار بدأ في تأليف رواية الأجيال، فنصحه بالقول إن هذا النوع من القصص يحتاج إلى تجربة ومران طويل.. إنني أفضل -والحديث لنجيب- أن تؤخر الكتابة عن هذه القصة.

كنت أتابع أحاديث السحار في الإذاعة وفي الجرائد، بدا السحار إنسانًا نقيًّا صادقًا، قرأت له جزءًا من كتابه "محمد رسول الله والذين معه" في مكتبة جدي. بعد سنوات، عرفت من جبريل أنه عرف الرجل، ونمت بينهما صداقة، بدأت منذ زاره في المؤسسة الاقتصادية كي يناقشه في أعماله التي تناولها في كتابه "مصر في قصص كتابها المعاصرين"، لاحظ جبريل أن الود المفقود سمة العلاقة بين محمود البدوي وعبد الحميد جودة السحار. كان الأمر شبه معلن من جانب البدوي، صارح محمد جبريل إسرافه في العناية بأدب السحار، سواء فيما كتبه من مقالات في الصحف، أو فيما كتبه في كتابه "مصر في قصص كتابها المعاصرين".

الحكاية طويلة، وكانت سببًا في نهاية مشروع ثقافي قدّم العشرات من مبدعي ذلك الجيل، وهو لجنة النشر للجامعيين.

تحدث كبار المبدعين عن المبدع عبد المعطي المسيري، صاحب المقهى الأدبي الشهير، استعدت ونحن نقف أمام ما تبقى من المكان القديم، حرص رموز ثقافية -في زمان جميل- على أن تتردد على مقهاه، وتشارك في الأمسيات التي كان يقيمها المسيري، لكن المسيري أراد أن يجرب حظه في القاهرة، وبخاصة بعدما نال الأديب أمين يوسف غراب قدرًا كبيرًا من الشهرة في القاهرة، ألحقه السباعي بوظيفة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، لكن المكافأة عجزت عن سد متطلباته واحتياجات أسرته.

كان أمين يوسف غراب قد سبق المسيري إلى لقاهرة، وحقق نجاحًا كواحد من كتاب القصة اللامعين، بينما تفوق عليه المسيري بحصيلة ثقافية معرفية، فضلا عن أن المسيري يعد قطب جماعة أدباء أبناء البحيرة، فضلا عن تردد كبار الأدباء أمثال توفيق الحكيم ويحيى حقي ومحمود تيمور ومحمد مندور وزكريا الحجاوي ويوسف السباعي ومحمود البدوي وغيرهم.

كما أتاحت قهوته ظهور العديد من المواهب الشابة من أبناء البحيرة الذين وصلت أصواتهم إلى القاهرة: محمد صدقي، وفتحي سعيد، وعبد القادر حميدة، وسليمان فياض، وخيري شلبي، ورجب البنا، وغيرهم.

كتب المسيري عشرات المذكرات للسباعي لزيادة راتبه دون جدوى، ظن الرجل أن في مقدور جبريل حل مشكلته، فتوسط جبريل وعرض مشكلة المسيري، بدا التأثر واضحًا على وجه السباعي، لكن الرجل قال في تقريرية: لم يُفلت المسيري فرصةً للإساءة لي.. فكيف تنتظر مني -وأنا بشر- أن أرد إساءته بإحسان؟.

سيظل السباعي شخصية محيرة، وهو الرجل الذي كانت بيده مقاليد أمور الثقافة في بلادنا، يمنح ويمنع نقوده على الصحف والمجلات والدوريات الثقافية، نتذكر معًا قصة محمد حافظ رجب عن الرجل المكتب وغيرها من القصص المستوحاة من انعكاس مواقف السباعي على كتابات حافظ رجب، حتى عاد الرجل إلى مدينته بعد أن عانى ظروفًا صحية قاسية، أثرت على مسيرته الإبداعية بشكل عام.

من الموضوعات الشائقة التي تناولها جبريل في أيامه القاهرية، تهمة البخل التي اتهم بها الأدباء، وأشهرهم على الإطلاق توفيق الحكيم. عرفته جيدًا عندما كتبت في ضوء ملاحظته أن الحكيم كان يستنسخ من كتبه كتبًا أخرى، بمعنى أنه كان ينتقي فصولا من كتبه، ويضمها إلى فصول من كتب أخرى، بدت الظاهرة غريبة لي، وأغراني جبريل بأن الموضوع جديد، لم يتطرق له أحد ممن كتبوا عن الحكيم. نشرت الدراسة في مجلة "عالم الكتّاب"، بمناسبة الذكرى السنوية لوفاته، ورغم أن د. ماهر شفيق فريد وصف الدراسة بأنها، فإنها حصلت على أعلى مكافأة لكتّاب هذا العدد، ووصل المجلة العديد من رسائل القراء من الأردن وسوريا والكويت تُشيد بالدراسة.

التصقت صفة البخل بالحكيم، حرص الرجل أن يعرف الناس عنه عادات كثيرة، منها صينية البطاطس والعصا والبيريه وراهب الفكر وحمار الحكيم وغيرها، لكن يحيى حقي ينفي هذه الصفة عن الحكيم. فالحكيم يدفع الحساب لجلسائه في ندوته، ويروي ألفريد فرج أنه

اكتشف أن الحكيم نفسه كان مصدر الشائعات التي أُشيعت عنه، ولعلنا نلحظ أن الحكيم أنفق ما كان يكسبه، ولم يخلف ثروة هائلة كان من المتصور أنه كسبها من مرتبه ومكافآته والجوائز.. إلخ.

في انطلاق السيارة في شارع العروبة، يشير جبريل إلى شارع الغزالي القريب من كوبري الجلاء، ويقول: يحيى حقي يسكن في هذا الشارع.

أحببت يحيى حقي صاحب: القنديل، والبوسطجي، وكناسة الدكان، وتعال معي إلى الكونسير، أم العواجز، دماء وطين، الفراش الشاغر، من باب العشم، عنتر وجولييت، دمعة فابتسامة، ناس في الظل، عطر الأحباب، حقيبة في يد مسافر، أنشودة البساطة، خليها على الله، صح النوم.

ترك يحيى حقي مسكنه في الطابق الأخير بعمارة بمنطقة روكسي؛ حيث عانى شدة حرارة الجو، "يضع الرجل طاقية الماء المثلج على رأسه". هكذا صور لي جبريل أستاذنا يحيى حقي، عندما كان يزوره، يدعو جبريل إلى الماء القراح، لا لبخل في طبعه، وإنما لأن جبريل تأخر في شرب الشاي.

قيل إن الرجل لم يقدم للأدباء -أثناء استضافته لهم- سوى الشاي والقهوة والماء القراح، لكن ما فعله الرجل بتبرعه بمكتبته الضخمة لجامعة المنيا أضاف إلى ما رواه جبريل من أن مبادرات ليحيى حقي تؤكد أن الرجل لم يكن بخيلا، فعندما أُصيب المبدع محمد روميش بالمرض الخطير، وعجز عن تدبير نفقات العلاج، عرض حقي على روميش أن يتكفل بمصاريف رحلة العلاج في الخارج، رفض روميش بشدة هذا العرض، وأصر على أن تتكفل الدولة بمساعدته، لكن باءت كل الجهود بالفشل في استصدار أمر السفر للعلاج، ورحل روميش عن عالمنا كما رحل عشرات الأدباء الذين لم يكن لهم حظ آخرين، سافروا فور شعورهم بالألم.

لم ينجُ نجيب محفوظ من تهمة البخل، رغم أنه كان يدفع حساب من استضافهم في ندوته بالاسم، تخيل لو أن "نجيب" دفع حساب كل حضور ندوته، كيف كان حال أسرته؟!

هل كان راتبه الوظيفي يسمح بذلك؟ بلغت الشائعات حول محفوظ، ما تهامس به أحد المقربين من نجيب محفوظ -سمعت بنفسي- أن "محفوظ" يفضل تناول اللحم المفروم توفيرًا للمال.

يرى جبريل أن السحار لم يكن بخيلا، ولم يكن مطلق الكرم، يرجع ذلك لطبيعته الاقتصادية، كان يشجع أبناءه على قضاء الإجازة شريطة أن يُنفقوا عليها من جيوبهم، وكان السحار يشجع الأدباء الشبان، ويسهم في نشر أعمالهم الأولى.

ويتذكر جبريل مشروع لجنة النشر للجامعيين، وكيف أنها قدمت كلا من: نجيب محفوظ، وصلاح ذهني، والبدوي، والسحار، وأحمد زكي مخلوف، وأمين يوسف غراب، وباكثير، وعبدالحليم عبدالله، وغيرهم. وللأسف، فقد كان محمود البدوي -والرواية للسحار- وراء إلغاء المشروع، حينما أشار إلى عمارة للسحار في منشية البكري، "هذه العمارة شُيدت بفلوس الأدباء"، فألغى السحار مشروعًا قدم جيل الأربعينيات، لكنه ظل يقدم المساعدة لأبناء الأجيال التالية، مد السحار يده لكل من يستحق المساعدة بالفعل، سواء أكان أديبًا أم لا.. وعدها صدقة أو زكاة فلا ينتظر السداد.

استغرقت أولُ رحلة لجبريل ترك فيها مصر إلى موريتانيا حوالي شهر، وكان نتيجة هذه الرحلة أكثر من عشر قصص نشر معظمها في جريدة "الأهرام"، بدأها بقصة "الأكسر". وجمعت الرحلة مجموعة كبيرة من الإعلاميين من الوطن العربي، وقد خص جبريل كروان الإذاعة الأستاذ محمد فتحي بالحديث عنه، لاحظ أثناء رفقته للأستاذ محمد فتحي في الأسواق أنه يدقق، ولا يتنازل عن حقه مهما بدا تافهًا، رد محمد فتحي على ملاحظة جبريل "الحرص على المبالغ البسيطة هو الذي يشكل المبالغ الكبيرة، السنت جزء من الدولار".

يتساءل جبريل في نهاية هذا الفصل قائلا: هل كان الحكيم غنيًّا؟ هل كان كذلك العقاد وطه حسين؟ وهل كان نجيب محفوظ غنيًّا؟ وهل كذلك بقية الأدباء؟!

يختار جبريل "أصداف" عنوانًا لفصل في الكتاب، والحقيقة أن العنوان موفق، ففيه تروَى مواقف وحكايات وأسرار يكشف عنها لأول مرة، منها قصة كتابه قصة الثورة، ولماذا لم تتم؟ كان جبريل -وما زال- ناصريًّا، وإن لم ينتم لأي حزب، أحب عبد الناصر، وتمنى أن

يقابله، ويجلس بالقرب منه، ويحادثه، فعبد الناصر، هو الأب الشرعي للجيل الذي ينتمي إليه جبريل.

صدفة أخرى، أو حكاية أخرى، يرويها جبريل: حكاية ابنة العقاد، وعلاقته بالصحفي سيد العقاد الذي حرضه على الذهاب إلى سرادق العزاء، وإغرائه بأنه يمكنه كتابة تحقيق صحفي مثير في هذا الموضوع.

مذكرات الفنانة فاطمة رشدي "قد لا يتذكرها أحد الآن" أطلق عليها سارة برنار الشرق، عرفها جبريل قبل أن يلتقي بها عبر ما رواه يحيى حقي وسعد مكاوي عن ظروف حياتها القاسية، وجلوسها في مقهى الكورسال، كانت الصدفة وحدها هي التي جمعت جبريل بالفنانة فاطمة رشدي في مكتبه، بالطبع لم يكن هو المقصود بالزيارة، كان باعث زيارتها -كما روت هي- البحث عن محرر يتولى كتابة مذكراتها. زكى الفنان والناقد التشكيلي الكبير كمال الجويلي والصحفي عبد الحميد عبد النبي جبريل لكتابة المذكرات. وضعت فاطمة رشدي شروطًا للنشر: "النشر تتولاه دار نشر كبرى، الأجر الذي أتقاضاه لا يقل عن ألف جنيه، عملية الطباعة يجب أن تكون في أعلى مستوياتها.. فشل المشروع لأنها أصرت أن من يكتب المذكرات يجب أن يتكفل بنشرها! لم تنته قصة فاطمة رشدى مع جبريل عند هذا الحد.. ففي يوم كان جبريل فيه مسافراً إلى الأردن، فوجئ بفاطمة رشدي تجلس في المقعد المجاور، سألها عن مشروع المذكرات، قالت: لم تنشر حتى الآن، ولكني وافقت على عرض إذاعة إسرائيل بتقديمها من خلال عمل درامي!

روت المرأة ظروفها القاسية، ومعاشها الضئيل، وأضافت: من حقي أن أعيش حياة كريمة.

أتذكر أن برنامجًا تلفزيونيًّا حاول أن يلتقي بالفنانة، لكنها رفضت الاستجابة لطرقات المذيع، استعاض المذيع عن لقائها بلقاء جيرانها، تحدثوا عن فقر المرأة وبؤسها، وأنها تعيش في عزلة ولا يعرفون من هي.. وعندما ماتت فاطمة رشدي كتبت "الأهرام": "دفنت في مقابر الصدقة لشدة عارنا جميعًا، كأنما هي مشردة، مجهولة غير معروفة العنوان".

لا يُمكن للصحفي الشاطر أن يلتقي شخصية مهمة لها مكانتها في المجتمع، ولا يكتب عنه خبرًا، هذا ما فعله جبريل، أما الحكاية فتبدأ عندما يصف يحيى حقي الموسيقار محمد القصبجي بأنه ملحن في يده مسطرة وبرجل ومثلث، يعشق الشكل المتماسك، والواضح الخطوط، الحسن التركيب ألحانه أقرب لفن المعمار وعليها انعقدت الآمال في تجديد اللحن الشرقي.

التسرع واللهفة ومحاولة تحقيق نجاح سريع.. قد يكون كل ذلك وراء إخفاق يتذكره المرء ليتعلم من تلك الإخفاقات.. هذا الدرس وعاه جبريل بعد أن كتب عن لقائه بالرجل في الترولي، نشر الخبر وقامت الدنيا ولم تقعد بعد أن رفع الفنان شكواه إلى أعلى السلطات.

زار محمد جبريل الرجل في شقته التي يصفها لنا بدقة، لم يعاتبه الرجل على ما فعل، لكنه لم يسند إليه كتابه ذكرياته. حرمنا نحن المحبين لهذا الرجل ولفنه من قراءة ذكرياته بالصورة التي كان يأملها، ونأملها لها.

الإسكندرية هي المكان الأثير لمحمد جبريل، ينقل إليها الأحداث السردية حتى لو لم تكن جرت بالفعل، لنتذكر رواية "الصهبة" فقد جرت أحداثها في مكان قريب من الصعيد، لكن جبريل نقل الشخصيات والأحداث إلى الإسكندرية، رواية واحدة ووحيدة كتبها جبريل كانت تدور أحداثها في إحدى قرى الدلتا "قرية السمارة"، في بوح الأسرار يروي جبريل قصة الرواية الوحيدة عن قرية تقبع في وسط الدلتا. يكتب عن لقائه بأحد أشقياء هذه القرية، وأحوال القرية، معاناة أهلها وتطلعاتهم، موقع القرية إداريًّا، والمشكلات الناجمة عن ذلك! يروي له الرجل حكايته بكل بساطة، لم يتورط في قتل أحد، ولم يسرق فقيرًا، فقد كان يسرق الأغنياء ليعطي الفقراء، نسخة روبين هود المصرية، رويت عنه حكايات ملفقة نفاها الرجل وإن ظل يتمتع بهيبة بين جميع أبناء قريته، عمل خفيرًا، لكنه ترك المهنة حينما وجد أنها لا تساعده على العيش الكريم، زرع الأرض وعمل بالتجارة، هذا التحقيق الصحفي يتحول إلى رواية "بوح الأسرار" ليقف جبريل بجوار من كتبوا عن القرية، كان تحديًا لمبدع لم يعش في القرية، لكن جبريل كعادته احتشد لكتابة هذه الرواية متعددة الأصوات التي تُروى من حكاية الرجل كل من منظوره.

يُنهي جبريل كتابه بمناقشة قضية مهمة، وهي الاستشراق التي يعدها من القضايا التي تصلح للنقاش كل حين، فما أكثر الكتب والدراسات التي تناولته، ثمة عرض لأصوله التاريخية واتجاهاته وإيجابياته وسلبياته، تناول محمد جبريل القضية في كتابه "مصر من يريدها بسوء" يعرض جبريل للآراء المؤيدة والرافضة لهذه القضية، وبجد ميلا إلى طرح القضية بموضوعية، فيعرب عن رفضه لنظرية التآمر، يصعب القول أن الاستشراق هو عين الاستعمار التي يبصر ويحدق بها، أو أنهم -أي المستشرقون- ملة واحدة يهدفون إلى غاية واحدة وهي إطفاء نور الله، ثم يعرض اجتهادات المستشرقين وآراء المفكرين العرب، أمثال بنت الشاطئ التي تقرر أن الثقافة العربية تدين للمستشرقين بجمع تراثها، وصونه من الضياع. وتسأل: وماذا لو تركوا لنا تراثنا؟ أما كنا أهلا لجمعه وصونه؟.

يذكر جبريل -بعد مناقشة مستفيضة عن دور الاستشراق- قول ميشال جحا عن المستشرقين: "إنهم -أساتذة وباحثين أكاديميين- تخصصوا في دراسة اللغة العربية والحضارة العربية والدين الإسلامي، وهم يختلفون بالتأكيد عن أولئك الذين درسوا العربية لهدف تبشيري أو سياسي أو تجسسي أو إعلامي أو دبلوماسي".

يروي بعد ذلك علاقته بالمستشرقين، فيبدأ بالحديث عن الأب جومييه ودوره في تعريف الغرب بالأدب العربي من خلال كتاباته عن أعمال نجيب محفوظ وغيره من الأدباء، وكذلك ترجماته، ويمتزج الحديث عن الأب جومييه بالحديث عن دور دير الدومينكان بالعباسية، وفضل مكتبته الضخمة على الأدباء والباحثين والدارسين الأكاديميين، ويصف الحياة في الدير من خلال الرهبان أو ضيوف الدير، حيث الراحة والجو الروحاني والتسامح الديني الذي يعيش فيه الجميع، والزيارات المتعددة للقاهرة الفاطمية التي أحبها الأب جومييه بصحبة جبريل، وتأمل المعالم والملامح والقسمات، والحديث عن أهمية المكان تاريخيًّا.

ورغم هذه الصداقة يرفض جبريل أن يقدم الأب جومييه لمجموعته الأولى "تلك اللحظة من حياة العالم" التي ترجمها الناقد الكبير فتحي العشري، رأى جبريل في المقدمة أنها تقف في الطرف المقابل لما قدمه من تجريب. أبدى الأب جومييه استياءه مما جاء في قصة "أبناء

السيد الصافي -تنفيذا لوصيته- يبحثون عن الأخوات" عن الأقراص التي يتناولها الرهبان لكبت رغباتهم الجنسية، تحدث الأب جومييه عن فلسفة الرهبنة، عندما نشرت القصة كاملة ضمن المجموعة، لم يكرر الأب جومييه ملاحظته. ثم سافر الأب جومييه، وظل جبريل يسأل عنه كل من يسافر إلى فرنسا إلى أن انقطعت أخباره.

يظل الحديث ممتدًّا عن رهبان الدومينكان، وعن علاقة جبريل بكل من جورج قنواتي، ومارك شارتييه، وجان فونتين. ويؤكد جبريل دورهم في الحياة الأدبية والثقافية في مصر والوطن العربى وحبهم للبسطاء وللثقافة العربية.

هذا كتاب -بفصوله وحكاياته وأسراره التي يذيعها جبريل لأول مرة- إضافة لمبدع يعرف متى يبوح بأسراره.

قبل أن تقرأ

لعل السيرة الذاتية تنتسب إلى الذكريات بأكثر من انتسابها إلى المذكرات. المذكرات تكتب بصورة يومية، حتى لا تخون الذاكرة. أما الذكريات، فهي تعتمد على استدعاء الأحداث القريبة والبعيدة، واستعادة الملامح التي ربما شحبت في توالى الزمن. يساعده على ذلك - أحياناً - رجوع الكاتب إلى وثائق وأوراق قديمة وصور وأفلام وتسجيلات صوتية .

العادة أن الكاتب يكتب سيرته الذاتية، بعد أن يبلغ مرحلة النضج، أو أن يكون قد حقق مكانة طيبة تدفع قراءه إلى اقتناء كتابه. المثل الذي يحضرنى أيام طه حسين، وسجن عمر توفيق الحكيم، وكتاب "أنا" للعقاد، وحياة لطفى السيد وأحمد أمين والسحار، ووقوف صلاح عبد الصبور على أعتاب الخمسين.

القارئ يطالع السيرة الذاتية لكاتب ما، باعتبارها تصويرًا لمشهد يختلط فيه الخاص والعام، فالكاتب عضو مهم في المجتمع، وله علاقاته بالشخصيات المهمة. الكتابة هنا تتجاوز السيرة الذاتية إلى سيرة المجتمع في بعض جوانبه.

أكره الرواية بأسلوب الراصد الذي يكتفى بتسجيل الأحداث، كالصبى في الأيام، والراوى في مذكرات زكى نجيب محمود. أفضّل الأسلوب التحدثى كما في سجن العمر لتوفيق الحكيم، وخليها على الله ليحيى حقي. مخاطبة القارئ باعتباره صديقاً تبثه ذاتك، وتبوح له بما كنت تعتبره سرك الشخصى. أعرف أن الكاتب قد يضيف، وقد يحذف، وربما اختلق خياله ما يبدّل الصورة الحقيقية، لكن يبقى الصدق الفنى، ولا بأس بالقليل من الصدق الموضوعى. وثمة من اتجه إلى كتابة السيرة الذاتية، لأنه يروى فيها - بالضرورة - أقل قدر من الخيال، وأكبر قدر من الواقع.

بالنسبة لى، فقد كتبت سيرتي الذاتية في العديد من الكتب، لا للوعظ، أو لتقديم خبرة، أو تجربة، ولا لارتداء ثوب المؤرخ، وإنما لأنى وجدت في داخلى حاجة لأن أكتب ما أكتبه.

كنت سأحزن لو أن قائمة مؤلفاتى خلت من حكايات من جزيرة فاروس والحياة ثانية ومد الموج وأغنيات السنين، وغيرها

لم أكتب سيرتي الذاتية في محاولة للتغلب على الزمان والموت - كما يتصور البعض - ولا للتدرب الواجب على كل كاتب - على حد التعبير النقدى الفرنسى - وإنما لوصل ما كان يجرى، والتطلع إلى آفاق المستقبل. وهى ليست محاولة للفرار إلى الماضى في مواجهة ما يبدو سخيفاً ومحبطاً، في الآنى والمتوقع.

كتبت سيرتي الذاتية لأنى أردت أن أستعيد أبى وأمى وإخوتى وحجرتى في البيت المطل على شارع إسماعيل صبرى. والحياة في بحرى والبحر والجوامع وحلقة السمك والصيادين وغازلى الشباك وشاطئ الكورنيش وحديقة سراى رأس التين والمذاكرة في أبى العباس والموالد والجلوات ومواكب الصوفية وأهازيج السحر من على تمراز وسوق العيد.

سيرتي الذاتية - على نحو ما - تعبير عن الحنين. في يقينى أن الحنين دافع مهم لكل مبدع.

هذا الكتاب سيرة أيامى القاهرية، أيام تختلف تماماً عما عشته في الطفولة والصبا، ربما يغيب عنها الحنين الذي يشدنى إلى أعوام العيش في بحرى، بل لعلى أعترف أنى لم أكن فيها مشاركاً إلا بقدر حجمى، بالقياس إلى شخصيات مهمة أتاحت لى الظروف أن ألتقى بها. قد يجد فيها القارئ ما يمكن أن نسميه " شاهد عيان "، أو " شاهد على العصر "، أو غيرها من التسميات المتداولة.

محمد جبريل

الأيام الأولى

لأن وسائل النشر تتركز في العاصمة، ولأن الإسكندرية مدينة إقليمية، فقد قررت أن أسافر إلى القاهرة. أذكر قول صديقى الشاعر حسن فتح الباب إن الطائر يظل مقصوص الجناح في بلده الصغير حتى يكسر القيد، ويحط على أفق المحروسة التي تمثل بلاد الله الواسعة.

لم أكن أملك سوى ثياب قليلة، وبضعة جنيهات، ومجموعة من الكتب، اشتريتها، أو حصلت عليها من مكتبة أبى.

قال لى صديقى فتحى الإبيارى:

- أنت تجازف.

قلت في إصرار طفولى:

- لن أخسر شيئاً !..

سافرت في قطار الصباح، في بالى أبيات كفافيس، ذلك الذي أحببته في قراءات شاب يونانى صديق:

أنصت إلى متعتك الأخيرة ..

إلى الأصوات ..

إلى الآلات الصاخبة..

للفرقة الغامضة..

وقل لها:

وداعاً..

وداعا..

للإسكندرية التي تضيع منك.

لكن الإسكندرية - في الحقيقة - لم تضع منى. ابتعدت عنها، دون أن تبرح موضعها في داخلى.

أبطأ القطار من سرعته، قبل محطة القاهرة، فأسرعت بتلاوة الفاتحة، والآيات التي تذكرتها من القرآن.

ورغم ثقتى بأن المسئولين في صحف القاهرة - مجلة البوليس تحديداً - سيرحبون بكتاباتى، لأنى نشرت فيها العديد من التحقيقات بتوقيع صديق كان يعمل مراسلاً لها.. رغم ذلك، فقد كنت أعانى خوفاً حقيقياً.

قضيت ليلتى الأولى ضيفاً غير مرغوب فيه عند خالة لى تسكن بالقرب من ميدان تريامف بمصر الجديدة. أما لماذا عرفت في نفسى هذه الصفة، فلأن خالتى حدثتنى في اليوم الثالث عن شعورها بالحرج من زوجها، فهو رجل غريب، ومن العيب أن تفرض عليه قريباً لها، ورجتنى أن أتصرف.

وتصرفت.

لم تكن لافتات " شقة للإيجار " قد غابت عن بنايات القاهرة. المشكلة كانت في ضآلة ما بحوزتى من نقود، بضعة جنيهات تكفى - بميزانيات تلك الأيام (١٩٥٩) - لسد احتياجاتى الضرورية حوالى الشهرين، لكنها تذوب في إيجار شهر واحد.

وجدت ضالتى: حجرة مشتركة في " بنسيون " بشارع فهمى، القريب من سوق باب اللوق، إيجارها الشهرى ثلاثة جنيهات.

حملت التحقيقات التي كتبتها باسم صديقى الصحفى السكندرى، وذهبت إلى مجلة البوليس، وطلبت - بثقة - أن أقابل سعد الدين وهبة.

- لماذا ؟

- اريد أن أكتب في المجلة.

- الأستاذ مشغول. أترك ما تريد نشره.

- يهمنى لقاؤه.

- اترك ما تشاء.

- أريد أن تبلغه إنى كتبت للمجلة كثيراً.

وشرحت للموظف حكاية عملى " من الباطن " مع صديقى المراسل، وهز رأسه بما يعنى تفهمه لكل ما قلت، ثم طلب أن أعود بعد أيام.

وانتظرت ثلاثة أيام، ثم عدت. أبلغنى الموظف [صار - فيما بعد - زميلاً بشركة الإعلانات المصرية، التابعة لدار التحرير، التي أعمل صحفياً بها!] إن سعد الدين وهبة يعتذر عن نشر أعمالى.

أظلمت الدنيا في عينى. مادامت المجلة قد نشرت ما كتبه الصديق المراسل، فلابد أن سعد الدين وهبة ساءه أسلوب تقدمى للنشر في المجلة.. وهو أسلوب غير أخلاقى بالفعل!

كنت قد قرأت لأحمد عباس صالح، رسمت له - من كتاباته - صورة مثالية، فقطعت المشوار من ميدان التحرير - حيث كانت تقع مكاتب مجلة البوليس - إلى مبنى جريدة الشعب بشارع قصر العينى.

اعتذر موظف الاستعلامات بأن " الأستاذ مش موجود "، وطلب أن أنتظره بعيداً. اخترت للانتظار سور حديقة الفيلا المقابلة [تهدمت الفيلا - فيما بعد - وأصبحت عمارة كبيرة] وبدّلت في وقفتى قدماً بقدم، دون أن يداخلنى يأس. بدا لقائى بعباس صالح أملاً أخيراً، فقد كنت بلا أصدقاء، وكنت قد بدأت في بيع الكتب مما أتيت به من الإسكندرية، إلى باعة سور الأزبكية.

طرت إلى أحمد عباس صالح، بمجرد رؤيتى له وهو يقترب من مبنى جريدة الشعب. عرفته من الصور التي كانت ترافق بعض مقالاته، استقبلنى الرجل بود، أنسانى كل تعبى ومخاوفى، وطلب أن يقرأ لى.

كنت قد أفدت من درس البوليس، فلم أذكر له حكاية توقيع صديقى السكندرى على كتاباتى، وقدمت له قصتى القصيرة يا سلام.

قال أحمد عباس صالح:

- كويسة .. هل كتبت غيرها؟

قلت بفرحة:

- طبعاً .. وكتبت مقالات وتحقيقات.

أعطانى الرجل بطاقة إلى الدكتور على الراعى: قدم له محاولاتك، وسيرحب بنشرها.

استقبلنى - بدلاً من الدكتور الراعى - أديب معروف، من جيل يوسف إدريس. عرضت أن يقرأ لى، فاعتذر - بتأدب - أنه مشغول. ثم شملنى بنظرة إشفاق، وقال:

- قلت إنك من الإسكندرية.. القاهرة تختلف.. إنها أشبه بالغابة.. ويبدو أنك ابن ناس طيبين!

استطرد في لهجته المشفقة:

- نصيحتى أن تعود إلى الإسكندرية بلا إبطاء.

عدت إلى أحمد عباس صالح. أعطانى بطاقة ثانية إلى نعمان عاشور. ذهبت إليه في دار الجمهورية. قدمنى إلى الفنان التشكيلى أحمد طوغان. نقر طوغان على باب مغلق، ودخل، وأنا وراءه.

كان الجالس وراء المكتب سعد الدين وهبة. قدمت إلى القاهرة للقائه في مجلة البوليس، وهأنذا ألتقى به في الجمهورية.

يبدو أنى كنت متهيباً للغاية. قال لى سعد الدين وهبة :

- بمن التقيت؟..

قلت:

- نجيب محفوظ ويوسف إدريس ومحمد عودة ونعمان عاشور وأحمد عباس صالح ومحمود تيمور و..

قاطعنى:

- لا تقف أمامهم متهيباً هكذا.. ستكتشف أن معظم الذين تعجب بهم مجرد تماثيل من الملح!

قرأ لى سعد الدين وهبة قصتى يا سلام. أتصور انه أعجب بها، فقد فتح باب الغرفة المجاورة، وقدمنى إلى الجالسين فيها:

- محمد جبريل.. زميل جديد.

بدأ - في اللحظة التالية - تعرفى إلى الصحفى الكبير محمد حمودة، وإلى الأصدقاء: جلال السيد ومحفوظ عبد الرحمن ووحيد النقاش ومحمود خطاب ونفيسة حرك. عرفت أن أول عمل

لى في الصحافة هو تقديم أخبار صغيرة، فنية وأدبية واجتماعية، تنشر كل صباح، في صفحة يشرف على تحريرها سعد الدين وهبة.

كانت الموافقة هى خيارى الوحيد .

في القلب.. منازل

مكتوب في شهادة ميلادى، أن الطبيب الذي أشرف على ولادتى اسمه أنطون، وأن البيت الذي ولدت به عنوانه ٥٤ شارع اسماعيل صبرى، وإن ذكر أبى - فيما بعد - أنى ولدت في الشقة المقابلة، في البيت المقابل. وكنا أول سكان بيتنا، بعد شهر من ولادتى. وفضّل أبى أن ينسب ميلادى إلى البيت الجديد. وكما تعلم، فلم تكن القوانين صارمة - آنذاك - بضرورة تبليغ الأبوين عن ميلاد أبنائهما، في فترة محددة.

أدين لطفولتى ونشأتى في ذلك البيت بذكريات، أشرت إلى بعضها في كتابى حكايات عن جزيرة فاروس، وإن انتقلت منه، ثم عدت إليه، في مناسبات أسرية مؤسفة، طرفها الآخر شقيقى الأكبر الذي كان يشغله انفراده بالشقة، ثم تبين له عجزه عن سداد أعبائها، فضلاً عن تدخل الوسطاء من أفراد العائلة. ثم غادرت الشقة، وبحرى، والإسكندرية كلها - ذات صباح صيفى في عام ١٩٥٩- إلى القاهرة، وظللت بها حتى الآن.

كانت العلاقة بينى وبين أخى الأكبر قد وصلت إلى طريق مسدودة. لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخصام، لكنه كان قد قرر أن يحيا في شقة الأسرة بمفرده. مات أبى - بعد موت أمى بخمسة أعوام - فتشرذمنا. انتقلت شقيقتى الكبرى للإقامة مع عمة لى بمحرم بك، واستضافت

شقيقى الأصغر عمة تقيم في حلوان. وقدم لى شقيقى الأكبر عرضاً - دون مقابل - بأن أترك له الشقة، يقيم فيها بمفرده!

صعبت على نفسى، وأزمعت أن أترك شقة الأسرة فعلاً. وتنقلت بين العديد من" الحجرات " في أحياء الإسكندرية المختلفة، أولاها في شارع صغير - نسيت اسمه - متفرع من شارع السيالة. حجرة بلا طابق، ما يسمى بالطابق المسحور، تدخل إليها بإحناء جسدك، وتخلو من الماء والكهرباء، فهي للنوم فقط. إذا أردت الذهاب إلى دورة المياه، فبوسعك الذهاب إلى مسجد المسيرى القريب، وإذا احتجت شيئاً يسهل تحقيقه، فعليك أن تلجأ إلى الجيران. كان جيرانى من أسر الصيادين، والعاملين في المراكب والميناء. وكانت معظم رؤيتى للنساء، فغالبية أوقات الرجال في العمل، أو على القهاوى.

كانت الفترة التي قضيتها في هذه الحجرة مدخلاً إلى عالم بحرى : السيالة والأنفوشى ورأس التين، الحياة المغايرة في العادات والتقاليد والقيم والسلوكيات اليومية، العلاقات المتشددة والمتسامحة, والظروف الاقتصادية القاسية, وسطوة المعلمين، والتعامل مع المجهول. تعلمت مفردات بيئة الصيادين: البلانس، الفلوكة، الجندل، السنارة، الغزل، الطراحة، الجرافة، النوة، الحلقة، الشروة، البوغاز، الشرد، الطياب.. جلست على قهوة الزردونى في شارع السيالة، وتعرفت إلى تعامل الصيادين مع البحر، ومع مشايخ الحلقة، ومع بعضهم البعض. حتى مفردات الكلام والأزياء وزحام القهاوى أشهر الشتاء، وخلوها أشهر الصيف.. ذلك كله وفر لى مادة

خصبة، أفدت منها في تناولى لأبعاد الحياة في المنطقة التي ظلت في داخلى، حتى بعد أن تركتها. سافرت إلى مدن في الشرق والغرب، فظلت منطقة بحرى مثل جبل المغناطيس في الحكاية الشهيرة، تتجه إليها - بمناسبة وبلا مناسبة - تصوراته وسرحاته ولحظات التذكر!. تختلف نمطية الحياة بين كل حى وآخر، لكن نمطية الحياة في بحرى تختلف عما تعرفت إليه في أحياء الإسكندرية الأخرى بصورة مؤكدة.

أصارحك بأن الإسراف في الترحيب بى من جيران غرفة الطابق السحرى، كان هو الباعث - لا سواه - لأن ألملم أشيائى، وأهجر الحجرة الصغيرة.

قالت لى السيدة العجوز في تلقائية مشفقة :

- لماذا لا تتزوج؟

غمغمت:

- لسه بدرى..

شوحت بيدها:

- بدرى إيه؟.. انت عندك كام سنة؟

- ١٨

- يبقى لازم تفتح بيت.

أردفت في نبرة محرضة:

- والعروسة موجودة.

وأشارت إلى فتاة في حوالى الخامسة عشرة، وقفت على رأس السلم، تتابع - في صمت - كلامنا. كانت بيضاء البشرة، لها عينان واسعتان، وأنف مفلطح، وينسدل شعرها الأسود على كتفيها، وترتدى قميص نوم من البوبلين المزين بنقط حمراء وزرقاء.

بدت لى الخطوة التالية عنق زجاجة يصعب أن أنفذ منه، فأزمعت التراجع. أدركت أنهم رحبوا بسكنى شاب أعزب في بيت سكانه من الأسر، لاعتزامهم أن يجعلوا منه في أقرب وقت صاحب أسرة، فلابد إذن أن أتوقع معاملة مغايرة. وقررت أن أفر من الخطر قبل حدوثه. سلمت، وودعت - لظروف ادعيتها - واستأجرت حجرة ثانية على سطح بيت يطل على الأنفوشى، كانت مخصصة للغسيل، فحولها صاحب البيت إلى شقة للسكن. وقد صورت تلك الحجرة في قصتى القصيرة علاقة.

***

لا أذكر متى ظهرت الخرساء للمرة الأولى في حياتى. الخرساء صفة وليست اسماً، فلم أكن أعرف اسمها. ربما قدم بها صديق من السيالة إلى حجرة السطح. فتحت الباب الخارجى للطارق. أطلت نظرات صديقى المتواطئة من ورائها. دفعها إلى الداخل دون أن أفسح لهما الطريق.

قال وهو يعدل ملابسه، ويتهيأ للنزول :

- هى لك!

بدا المشهد أقرب إلى اللقطات السريعة، المتشابكة. تملكتنى حيرة، فلم أعرف كيف أتصرف، خبرتى المحدودة بالجنس لغز يصعب حله، زاد من صعوبة اللغز أن حديثها اقتصر على الإشارات التي تطلب منى إشارات مماثلة.

أجهدنى الحوار بلغة البكم، وإن أفدت - بالطبع - من عالمية لغة " الفعل"، ثم أفسحت لها موضعاً إلى جوارى، وألقيت عليها تحية المساء، ونمت.

صحوت على هز المرأة لى تحاول إيقاظى. وضعت في عينيها نظرة توسل، ورفعت إصبعها بالمعنى الذي تريده. أشحت بيدى في وجهها، وتهيأت للعودة إلى النوم، لكنها ظلت على توترها وإلحاحها، فرضخت، انعكس تكرر مرات المضاجعة في نهارى كله، أعانى الخواء والتعب والرغبة في النوم.

دخلت الخرساء حياتى في ظروف لا أذكرها، وغابت عن حياتى في ظروف لا أذكرها كذلك. لم أعد أتوقع طرقات يدها على باب السطح.

وذات عصر، رأيتها تشاجر امرأة تكبرها بسنوات، المرأة تقذفها بوابل من الشتائم، بينما تلجأ هى إلى كل ما يسعفها من حركات اليدين والساقين، بل إنها مدت الساق بدلاً من الذراع في معنى أترك لك تصوره!

أدركت من ارتدائها ملابس البيت، ومناصرة النظرات المحيطة لتصرفاتها، أنها تسكن الحارة المتفرعة من شارع رأس التين.

تقابلت نظراتنا، لكنها تجاهلت رؤيتى، وظلت على انشغالها بالمشاجرة.

اختفت المرأة من حياتى دون أن أعرف اسمها. أفدت من علاقتى الطارئة بها - كما رويت لك - في قصتى " علاقة ". وظفت واقعة جرت في ما يشبه المأزق، حين لحق الخرساء في حجرتى شقيق صاحب البيت. أعفانى شبقه من الكذب، ما أراده ناله في الحجرة المغلقة، وانصرف وهو يدعونى إلى الصمت!

***

انتقلت إلى حجرة مفروشة في شقة تقطنها أسرة بائع سمك. زوجة وولدان وثلاث بنات. وكان لتلك الأسرة - في الحقيقة - تأثيرها الغلاب في نظرتى إلى الأمور، وفى إثراء تجربتى الشخصية والفنية في آن معا. بل كانت إقامتى مع الأسرة، باعثاً لكتابة رباعيتى بحرى.

كانت الشقة تطل على شارع العوامرى، وتطل في الجانب الأيسر على قهوة الزردونى، ومسجد المسيرى، وصخب الحياة في شارع السيالة. الأب في حوالى الستين، يذهب في الصباح إلى حلقة السمك، يشترى الشروة، يسرح بها في مناطق الرمل، ويعود آخر النهار. الابن الأكبر يعمل ميكانيكياً في بلانس، وإن لم يسافر في رحلات خارج الإسكندرية. أما الابن الثانى، فقد اكتفى ب- " التهليب " على حد تعبيره، حتى بلغ سن التجنيد، فظل في الجيش بعد انتهاء مدته الإجبارية. وأما البنات الثلاث، فقد ذكرننى بخديجة وعائشة بين القصرين. بقين في البيت، لا يؤذن لهم بمغادرته، حتى جاء العدل - بعد أن غادرت البيت بسنوات - وانتقلن إلى بيوت الزوجية!..

كانت بيئة الصيادين في السيالة والأنفوشى ورأس التين - كما رويت لك-- مغايرة تماماً لبيئة الموظفين التي أمضيت فيها سنى طفولتى وصباى. أجمل الأوقات حين أقف على شاطئ البحر، أرقب صيادى الجرافة والطراحة والسنارة، وأتردد مع صديقى عادل الصبروتى على الميناء الغربية، نتجول بين الشون والمخازن والحاويات والصناديق والأجولة، نتأمل البواخر الضخمة في رسوها على الرصيف، نركب جندلاً صغيراً من رصيف رقم واحد إلى رصيف رقم ستة. المقابل تعريفة في الذهاب والعودة، نرقب حركة البيع والشراء في حلقة السمك، نحيا الموالد وحلقات الذكر في أبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش ونصر الدين.. أحببت - بلا حد - ذلك العالم الخصب، والمتميز، واخترت المذاكرة في صحن أبو العباس، وترددت على حلقة السمك، وعرفت قهاوى الصيادين، وأماكن تجمعاتهم.

***

لا أذكر الأسباب التي دفعتنى إلى ترك بحرى، لكننى تعاقدت على إيجار حجرة مفروشة في شقة أسرة يونانية بالعطارين. أصارحك بأنى استلهمت أحداث روايتى الشاطئ الآخر من هذه الأسرة، من فترة إقامتى القصيرة معها. تزامنت الإقامة مع صداقة - قصيرة أيضاً - لشاب يونانى، نسيت اسمه، وإن اخترت له في الرواية اسم ديمترى. أدين له بفضل تعرفى إلى قصائد كفافيس وناظم حكمت وروائيى الواقعية الطبيعية بلزاك وزولا وفلوبير وديكنز وغيرهم، وربما يدين لى بالتعرف إلى نماذج من التراث العربى مما كنت قرأته في مكتبة أبى. شغلنى - وأنا أبدأ في كتابة الشاطئ الآخر - تقديم حياة مغايرة لما نشأت عليه. أحببت - في ترددى على شقة

الشاب - أخته الصغيرة ياسمين - هذا هو اسمها بالفعل - فتاة جميلة في السادسة عشرة، أنجبتها الأم اليونانية من أب مصرى، بعد أن ظلت أرملاً ليونانى هو والد الشاب. ظلت فكرة الكتابة عن هذا الحب تناوشنى، حتى خلوت إلى الأوراق لأكتبها، فاتسعت بانورامية الصورة لتشمل علاقتى بديمترى - اسم من عندياتى كما قلت لك ! - وأفراد الأسرة اليونانية التي أقمت - معها. وأصارحك بأن الكثير مما جاء في الرواية قد عشته بالفعل. أما القليل، فقد كتبته في ضوء ثقتى بأن العمل الإبداعى يجب أن يكتب نفسه!

***

مع تعدد البيوت التي تنقلت بينها، فلعلى أدين بالذكريات الأعمق للبيت رقم ١ بشارع فهمى، القريب من ميدان باب اللوق.

كان قد مضى على قدومى من الإسكندرية ثلاثة أيام، لما أبلغتنى خالتى إنها لا تستطيع استضافتى يوماً رابعاً، فالبيت - على حد تعبيرها - لرجل غريب، هو زوجها، ومن العيب أن تجبره على استضافة أهلها.

لم أكن أتردد على شقة خالتى في مصر الجديدة - منذ وضعت فيها حقيبتى - إلاّ في المساء، وأنصرف في الصباح الباكر، فهي مجرد ملاذ أريح فيه جسدى. تصورت أن النوم على كنبة الصالة، ومغادرة الشقة قبل أن يصحو أصحابها، لن يمثل عبئاً على أحد، فضلاً عن توهم - تبينت، فيما بعد، سذاجته - أن الخالة ستجد في استضافتى تواصلاً مع الأعوام التي أمضتها ضيفة علينا، قبل أن " تُعرض " في سوق الزواج، وتتم كل الخطوات برعاية أبى!..

المهم أنى قضيت يوماً في المفاضلة بين شقق وسط البلد، فقد كانت كثيرة، ثم اخترت شقة شارع فهمى. بدت مناسبة لاقترابها من دور الصحف - تلك الحصون التي أتوق لاقتحامها!

- ولإيجارها الشهرى الذي لا يجاوز الجنيهات الثلاثة.

الشقة أقرب إلى البنسيون. بها خمس حجرات، يقيم في كل حجرة نزيلان من جنسيات مختلفة. ثمة السورى واللبنانى والمغربى والسودانى، والمصرى بالطبع، ولم يكن لاختلاف الجنسيات تأثير في الحميمية التي اتسمت بها العلاقة بين المقيمين. وكان يشاركنى حجرتى شاب سودانى اسمه أحمد. لم تكن الحجرات تغلق أبوابها أبدا،. نقضى أوقات إقامتنا في الصالة، تشرِّق أحاديثنا وتغرِّب، ويتعرف كل واحد إلى صورة الحياة في بلاد الآخرين. وعندما طرقت أول عابرة باب الشقة، تصورت أن الاسم الذي كانت تسأل عنه صحيح، وهممت بأن أعتذر لها، لكن الشاب السورى صاح من مكانه:

- من تبحثين عنه موجود هنا.. تفضلى!..

دخلت الفتاة.

عرفت أن الاسم الذي طرحته مجرد مفتاح، كود، يعرفه نزلاء البنسيونات والعزاب. ومع أنى ظللت - لفترة طويلة - خارج أسوار التجربة، لأسباب أخلاقية واقتصادية، فقد أفلح أصدقاء البنسيون في جرى إلى ذلك العالم الذي لم أكن أتصور - يوماً - أن أحيا داخله. فتيات يصدقن، ويكذبن، ويعطين أسماء حقيقية ووهمية، ويتعرين، ويظهرن الخجل، ويعانين تعثرات

البداية، ويمتلكن جرأة في التعامل، تبين في التأكد - بضغطة اليد - من أن الشاب لا يعانى مرضاً ما!..

كان جزرة يثق في قدرته على استمالة أية امرأة، يثق أنها ستهبه جسدها دون مقابل، مجرد أن يجرى بيده - لم أره يفعل ذلك - على ظهرها، يذوى رفضها حتى يتلاشى، وتسبقه إلى الحجرة.

لى قصة اسمها الدفء، استعدت فيها تلك الأيام التي أمضيتها في شقة شارع فهمى. كانت بداية تعرفى إلى ما لم أكن عرفته من قبل. كانت تجاربى في العلاقة الحسية قليلة وساذجة، ولم أكن أدرك ميكانيكية العلاقة بين الرجل والمرأة على نحو صحيح. إنما هو تصور تبينت سذاجته في علاقات الأيام التالية.

ما تعرفت إليه في هذه الشقة، مثّل استثناء في حياة عادية. كنت أمارس شيئاً لا أتصوره، بل وأرفضه. لا أتصور العلاقة الحسية دون علاقة، صداقة، معرفة. أرفض امرأة لا أعرف اسمها، ولم تنشأ بينى وبينها مساحة من الذكريات، أرفض التعامل مع مجرد امرأة. لابد أن أعرف من هى تلك المرأة: ما اسمها؟ ما أحوالها؟ آخذ منها في الكلام وأعطى، كل ما حولى يدفعنى إلى ما كنت أرفض تصوره، يحيون للجنس، ويحيون فيه. حتى المرأة التي كانت تقيم في البيت لخدمة المقيمين فيه، كان معظم دخلها من بيع جسدها.

ذات عصر، كانت سهير - هذا هو اسمها - قد أفلحت في اجتذابى لحضنها. وفى أثناء احتدام العلاقة، فتح الباب، وظهر صاحب البنسيون: مساء الخير!.. ولأنى كنت منغمساً في لحظة الذروة، فقد اكتفيت بالقول - دون أن أنتزع نفسى من المرأة - : مساء النور!.. ويبدو أن الرجل أدرك صعوبة الموقف - موقفى - فقد أغلق الباب، ومضى. وعرضت على امرأة من المترددات - ذات صباح باكر - أن أعانقها. كانت أماً لرضيع، أنامته على كرسى في الأنتريه، وأسلمتنى نفسها. ثم علا صراخ الطفل فجأة، فدفعتنى بأصابعها - برفق - في صدرى:

- أرضع الطفل، ثم نعود.

تذكرت قول امرئ القيس في امرأة اتصل بها وهى تحمل طفلها، فتوزع اهتمامها بينه وبين الطفل:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق، وتحتى شقها لم يحول

وبالطبع، لم أعد إليها. مثّل تأثرى بما حدث سوراً عجزت عن مجرد التفكير في القفز من فوقه.

يبدو الأفق ضبابياً، أو بلا ملامح، لو أن إقامتى استمرت في تلك الشقة، صداقات طارئة، وعلاقات غريبة، وحياة خالية من المعنى، وإن مثل الجنس فيها بعداً مهماً. دوامة أخفقت - لضعف إنسانى واضح - في الخلاص منها، كنت بلا تجارب حقيقية، ونسيت التطلع إلى احتمالات الغد، حتى فاجأنا صاحب الشقة بإنذار إخلاء.

قال وهو يتوسط الصالة:

- كل البنسيونات تجرى فيها أمور لا تليق. هذه الشقة تحولت إلى ماخور!..

فتشت مساعدة المشرفة - فتاة في حوالى العشرينات، اسمها سناء - عن شقة في البيت الخلفى بشارع نوبار رقم ٣٠.

قالت سناء وهى تساعدنى في إعداد الحقيبة:

- هذه الشقة لك ولى.. طردنى صاحب البنسيون!..

***

كانت الشقة تتألف من طرقة صغيرة، إلى يسارها طاولة خشبية، خلف حاجز بمعنى المطبخ، وفى الواجهة غرفة وحيدة، يشغلها سرير، ودولاب بضلفة واحدة، ومكتب خشبى صغير، وكرسيان. وكانت الجدران عارية، والأرض مفروشة بكليم أسيوطى. وكانت الشقة - هل هى تسمية دقيقة ؟ - تطل على الشارع الخلفى نفسه الذي كانت تطل عليه شقة شارع فهمى، مفرداته ورشتان لسمكرة السيارات، ومقهى رواده من الحرفيين، يشربون الشاى والمعسل، ويصخبون بلعب الطاولة والكوتشينة، ولذلك الشارع الخلفى ملامحه الواضحة في روايتى " كوب شاى من الحليب ".

قدمت سناء نفسها لسكان " الشقق " المجاورة على أنها أختى. لم أنكر ما قالته، ولا وافقت عليه. بدت الفتاة مأزقاً، يصعب - لدوافع إنسانية تماماً - أن أتخلص منه!

وروت لى سناء قصتها، هى من طنطا، زوجّها أهلها من رجل يكبرها بأربعين عاماً، يقضى غالب يومه في تدخين الحشيش ومعاناة المرض، والادعاء بأنه لا يملك شيئاً. لما قهرها اليأس، استقلت القطار إلى محطة القاهرة، واحدة من مئات الوافدين كل يوم، في رحلة البحث عن الأمن.. أو الضياع!.[لعلى أجد في شخصية أنسية في رباعية بحرى، انعكاساً - على نحو ما - لشخصية سناء!]

صدقت سناء فيما روته، فلم تكن بحاجة إلى الكذب، بعد أن أقامت معى فعلاً. اعتمدت عليها في غسل ثيابى، وإعداد طعامى، وإن لم تنشأ بيننا علاقة حسية، ذلك لأنى أومن - كما قلت لك - بأنه يجب أن يسبق العلاقة الحسية، انجذاب كل طرف إلى الآخر بالفهم والتفهم والمعاشرة.

حين نادى ساعى البريد على اسمى، نزلت ملهوفاً، وسعيداً، ها قد أصبح لى عنوان أتلقى الرسائل عليه. كانت الرسالة الأولى من صديقى فتحى الإبيارى، بداخلها العدد اليتيم من مطبوعته الجميلة أوراق سكندرية.

أحاول أن أتذكر أيامى في شارع نوبار، فلا أوفق. كنت أنفق وقتى كله في البحث عن "فرصة "، والتعرف إلى الحياة الأدبية في القاهرة.

كنت قد بدأت صداقات جميلة مع أحمد عباس صالح ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وعبد الحميد السحار ومحمود البدوى ونعمان عاشور وكمال الجويلى وعبد الحليم عبد الله وثروت أباظة

وعبد العال الحمامصى وعلى شلش ونخرى فايد ومحمد حافظ رجب وعباس محمد عباس وعبد الرحمن الأبنودى، وعشرات غيرهم. بدوا لى سنداً في غربتى القاهرية.

وجدت ضالتى في شقة بشارع ابن الرشيد في حى جزيرة بدران.

وأتوقف قليلاً لأصارحك بأنه على الرغم من قصر المدة التي قضيتها في بيت شارع نوبار، فإنى واجهت فيها تجربتين لم أصادفهما في حياتى من قبل، ولا من بعد. الطريف أن شخصاً واحداً كان وراء التجربتين. تعرفت إليه في شقة شارع فهمى، والتقيت به بعد أن أغلق صاحب الشقة بابها:

- أهلاً وسهلاً

- أين انتقلت؟

- البيت رقم ٣٠ في شارع نوبار.

لم يكذّب خبراً، تردد على الشقة باعتباره صديقاً، مع أنى لم أكن أعرف من هو، ولا ماذا يعمل. كانوا ينادونه عاطف، ولم أعرف بقية الاسم، لكنه كان شخصية مقتحمة، يفرض صداقته، ويعد لنفسه كوب الشاى، ويدير جهاز الراديو، ويتسلّى بمشاهدة الطريق، ويطلب من سناء أن تزيل الأوساخ التي علقت ببنطلونه.

ادعيت أنى كثير الغياب عن البيت، وأن ظروفى لا تسمح باستقبال أصدقاء، لكنه جعل أذناً من طين وأذناً من عجين، وثابر على زياراته.

وهمست سناء، وهى تفتح لى الباب عصر يوم:

- الأستاذ عاطف هنا ومعه خواجة.

وأشارت إلى الحمام.

اندفعت أطرق الباب.

طالعنى عاطف بابتسامة لزجة :

- خواجة اتعرفت عليه النهاردة.. لو انت عاوزه!

وأومأ برأسه إلى الشاب ذى الشعر الكستنائى المتهدل على الكتفين، والعينين الزرقاوين، والسحنة التي تبين عن خنوثة واضحة..

مع أنى تصرفت بقسوة لم أعهدها في نفسى، فإن غياب عاطف عن حياتى اقتصر على ثلاثة أيام، ثم جاء في اليوم الرابع.

فتحت له الباب، حيث كانت سناء قد خرجت إلى العالم الفسيح.

كانت تقف وراءه فتاة في حوالى الخامسة والعشرين. ترتدى تاييراً رمادياً بسيطاً، وحذاء أسود قصير الكعبين:

- صديقتى الآنسة سلوى..

سبق موافقتى، أو رفضى، دفعه لها داخل الشقة..

همس:

- خمس دقائق، وأتركها..

أضاف بلهجة محرّضة:

- هكذا اتفقنا.

كانت الفتاة جميلة، وكنت قد اعتدت في شقة شارع فهمى ما لم أتوهم أنى سأعرفه.

خرج عاطف من الحجرة المغلقة بعد أقل من دقيقة. قال، وهو يمضى ناحية باب الشقة:

- اصرفها، فعندها مانع!

ابتسمت الفتاة لوقفتى المتحيرة في الصالة الصغيرة:

- ماذا قال لك؟

هززت رأسى بعفوية.

قالت:

- صديقك ضحك علىّ.. سألته عن وزارة الأوقاف.. جال بى الشوارع، ومررنا أمام مبنى الوزارة أكثر من مرة حتى أغلقت الأبواب، فدعانى للراحة عند صديق.

وداخل صوتها شماتة:

- كذبت عليه لأبعده!.

أرجعت إلى المجاملة - مجاملة سناء التي قدمت نفسها بأنها شقيقتى - قول المرأة إنها تشبهنى تماماً. لم أعقّب، ولم أظهر رد فعل من أى نوع. أدركت المرأة - بنظرة مجربة - طبيعة العلاقة

بين سناء وبينى، وطرحت سؤالاً يجاوز محاولة فهم العلاقة، إلى محاولة التأكد من طبيعتها: أين التقيتها؟

أمضت المرأة الليل في السرير الوحيد بالغرفة. استلقت سناء بين المرأة وبينى كى تمنع ملامسة ما، وظلت متنبهة حتى راحت في النوم، لكن المرأة - بجرأة مومس! - تسللت بأصابعها إلى مصدر النشوة في جسدى. ظلت تعبث حتى تحققت الرجفة، وكانت سناء تغط في نومها.

فى الصباح، تشاغلنا بالكلام. عرفت أن المرأة من شارع الإسكندرية بالزقازيق، وأنها أم لطفلين، قدمت إلى القاهرة للسؤال عن وقف أهلى. زادت، فدعتنى إلى زيارتها في الزقازيق. عرضت أن تؤجر لى غرفة فوق سطح بيتها، لنكمل ما بدأناه. ومضت المرأة إلى حال سبيلها قبل أن تعلو شمس الضحى.

الطريف أنى سافرت إلى الزقازيق بعد سنوات.

سألت عن شارع الإسكندرية، فلم أجده.

أدركت أن المرأة كانت ذات خيال جميل!

***

كانت شقة ابن الرشيد في الطابق الأرضى، لا نوافذ لها على الطريق. تستقبل الهواء والنور من نافذة حديدية، تتوسط أرضية المنور، أعلى السقف - كان من الصعب أن أقضى فيها أوقاتاً طويلة - اعتبرتها مكاناً للنوم، أقضى غالبية اليوم في الجريدة، وفى الأماكن التي يتردد عليها

الأدباء: دار الأدباء، ندوة نجيب محفوظ بكازينو أوبرا، نادى القصة، قهوة ريش، إيزافيتش، قهوة باب اللوق، وغيرها.. أعود آخر الليل، أتوقف - قليلاً - أمام بائع الحلوى الملاصق لمزلقان النجيلى، أشترى بخمسة قروش بقلاوة أو بسبوسة، تغيظنى محاولته أن يكون ودوداً، وهو يدفع لى بقطعة الحلوى، يردفها بقوله: مساء الجمال !

من أصدقائى في هذا البيت، طفلة في حوالى السابعة، تسكن أسرتها الطابق الثانى: معلّم في سوق روض الفرج، وزوجة لحيمة، وأبناء أكبرهم في المرحلة الثانوية. كنت أجد نشوة في حكايات الطفلة عن الأفعال الغريبة التي يمارسها أبواها على السرير وهما يتخيلانها نائمة، أوضاع لم أكن أتخيل أنها تحدث بين زوجين، لكن الطفلة كانت تحكى في براءة وسرعة، ثم تفاجئنى بالسؤال: لماذا ؟.. فلا أجيب!

***

سناء - كما رويت لك - هى الفتاة التي تعرفت إليها في بنسيون شارع فهمى بباب اللوق. وجدت سناء نفسها في العراء، لا ظل، ولا مأوى، حين أصدر صاحب البنسيون فرماناً بطرد النزلاء، والتعاقد مع آخرين.

فى نهاية روايتى " كوب شاى بالحليب " قالت عنابر لسمير دسوقى:

- يا سى سمير.. هل تأخذنى معك؟

- إلى أين ؟

- قلت إنك استأجرت شقة بمفردك.

- ليست شقة.. إنها مجرد غرفة وصالة.

- حتى لو كانت عشة فراخ.

قال في لهجة معتذرة:

- قد يرفض صاحب البيت.

- لن يرفض إذا قلت إنى خادمتك.

وشى صوته بالحيرة:

- خادمة في غرفة؟

طوحت بيدها:

- هذا ليس شأنه.

- سأحاول.

ثم في نبرة هامسة، معتذرة:

- وإن كنت لا أعدك!

نص الحوار - أو ما يشبهه - جرى بين سناء وبينى، ولإلحاحها من ناحية، ولأنى لم أكن اعتدت أن أقيم بمفردى من ناحية ثانية، فقد صحبت سناء معى إلى الشقة التي انتقلت إليها في شارع نوبار، ثم شقة في شارع ابن الرشيد بحى جزيرة بدران.

كانت البيئة في ابن الرشيد شعبية، فسكنى شاب مع فتاة ليست أخته، ولا زوجته، تجر المساءلة التي قد تبلغ حد الإيذاء!

زاد من صعوبة الأمر أن سناء كانت أقرب إلى الدمامة، ووسمت تأثيرات جرح من أسفل الأذن إلى الذقن ما يسهل النفور منها. مع ذلك، فقد لجأت إلى مخاطرة ادعاء سناء أنها شقيقتى التي تكبرنى [كنت في أوائل العشرينات] دون أضع حساباً للخطوة التالية، ولا الفترة التي ستمضيها سناء في ضيافتى .

لكن سناء أعفتنى من محاولة أى تصرف. أقدمت - بإلحاح من توطن غريزتها! - على التصرف الذي عجّل بابتعادها. عرضت نفسها على شبان من الجيران. ولأن الشبان كانوا - بحكم الجيرة - صاروا أصدقائى، فقد استنكروا أن يطعنوا صديقهم في شرفه!

نفت سناء أن تكون أختاً لى، وروت لهم تطورات العلاقة من بداياتها، وأكدت أنه لا وصاية لأبوة ولا أخوة على جسدها، فهي حرة تعطيه لمن تشاء!

غاب عن تصورى مغزى النظرات التي كان يرمقنى بها أصدقائى من الجيران، ثم جاوز أحدهم صمت النظرات، وأبلغنى بما روته لهم سناء: إنها تطلب مقابلاً لما تعرضه.. هل تلحظ الإطار الذي تضع فيه صورتك؟!

لم يكن الشك وارداً في ما قاله الشاب، فلا أحد يعرف - عدا نزلاء بنسيون شارع فهمى - طبيعة العلاقة بينها وبينى.

كان آخر رؤيتى لها، وهى تهبط السلم - ذات صباح - إلى باب البيت!

وحين خرجت سناء إلى العالم الفسيح، قررت أن أفتش عن شقة أخرى، في مكان آخر، أستقبل فيها أصدقائى، فلا يواجهوننى بالسؤال: هل كانت سناء هى أختك فعلاً ؟!

***

تركت شقة الطابق الأرضى إلى حجرة في سطح بيت قريب، دلنى عليها جار طيب، أشفق من الحصار الذي أعانيه في الحجرة المصمتة. كانت شقق البيت لأفراد أسرة سائق في مترو حلوان. ويبدو أن الأسرة أرادت أن تستكمل الدائرة، فتكرر صعود الابنة الصغيرة إلى السطح، فأراها، وأتقدم بالتالى لخطبتها.

كانت الأسرة تتألف من شاب يعمل في حسابات السكك الحديدية، وثلاث فتيات، تزوجت اثنتان، ولزمت الثالثة، الصغرى، البيت بعد المرحلة الابتدائية في انتظار العَدّلْ.

تصورت الأسرة في جار غرفة السطح عّدّلاً مناسباً.

نظرت إلى البنت - مديحة - بعين الذي يختار زوجة. بدت لى جميلة، ومؤدبة، إذا تكلمت تتجه بنظرتها إلى الناحية المقابلة. وكنت على ثقة أن نقراتها - ألفتها، وكنت أنتظرها! - على باب الحجرة، تدعونى لأقضى بعض الوقت في ضيافة الأب، هى تنفيذ لما خططت له الأسرة جميعاً.

كان الرجل يحكى عن طفولته في روض الفرج، فهو من أبناء الحى، والملاهى التي كانت سمة للحياة على ضفاف النيل القريب، والأحداث التي يواجهها في عمله.

روى - ذات يوم - عن شاب ألقى نفسه بين عجلات القطار: لم يكن القطار في سرعته، لكننى احترمت رغبته في الموت!

صعدت إلى غرفتى وأنا أعانى ارتعاشة من تأثير القسوة التي تخللت صوت الرجل، يزيد في عمقها النظرة المخيفة - لا يحضرنى تعبير آخر - التي كانت تطل من عينيه.

***

انتقلت إلى شقة في شارع مواز لشارع ابن الرشيد، بالقرب من مزلقان النجيلى - كانت لافتات شقة للإيجار أكثر من لافتات أطباء هذه الأيام ! - خمس حجرات واسعة، لم أشغل منها إلاّ حجرة واحدة، ضمّت سريرى ومكتبى ومكتبتى. أما بقية الحجرات فكانت على السداح. حتى المطبخ لم أكن ألجأ إليه إلاّ لشرب كوب ماء، فقد كان طعامى طيلة النهار من بوفيه المساء. يقدم لنا عم منصور الوجبات الثلاث، ساندوتشات بالأجل، وربما أقرضنا نقوداً، حتى نتسلم المكافأة فيحصل على معظمها، ويتكرر الأمر في الشهر التالى، وهكذا.

قد تبدو كلمة " شقة " غير مناسبة لمقتضى الحال، لكن إيجار الشقة المتوسطة كان يتراوح بين جنيهين وخمسة جنيهات.

أذكر أن صاحب البيت كان تاجراً في سوق روض الفرج. ذهبت إليه لتوقيع عقد الإيجار. نقل كلمات المجاملة إلى حديث عن أيامه الأولى في القاهرة: كيف بدأ بحمل قفص فاكهة، يطوف به الشوارع، ثم استأجر دكاناً صغيراً، ثم زادت تجارته حتى أصبح من كبار تجار سوق روض الفرج.

قال لى وهو يعبر بضغط طرف إبهامه وسبابته:

- بدأت تده [يعنى كده].. فلما أنجبت محمد أصبحت تده [وفرج ما بين إصبعيه].. ثم أنجبت أبو بكر فأصبحت تده [وزادت فرجة إصبعيه].

وعدد أسماء الخلفاء الراشدين إلى الإمام على بن أبى طالب. لا أعرف إن كان مسلسل الأنجال الأعزاء قد توقف، أم أنه لجأ إلى قائمة أخرى.

ساعدنى في نقل الأثاث إلى هذه الشقة، صديقى الشاعر عبد الرحمن الأبنودى. كان مجنداً بالقوات المسلحة، يلقى محاولاته الأولى في أمسيات رابطة الأدب الحديث، وينشئ صداقات. أخبرته برغبتى في الفرار من محاصرة الأسرة صاحبة بيت حجرة السطح [ملمحها الأهم كلمات الأب القاسية، اللامبالية!] لا أدرى من أين جاءها التصور أن مواردى المادية تكفل لى الزواج، فعرضوا ابنتهم، ولم أعقب، فاعتبروا السكوت علامة الرضا!

الواقع أنى لم أكن أمتلك ثمن الوجبة التالية، ولا كنت أعرف أين تمضى بى الظروف القاسية. وكم كنت أغالب الحزن وأنا أحمل كتباً ومجلدات رائعة، حملتها إلى القاهرة من مكتبة أبى، أبيعها على سور الأزبكية لإسكات صراخ المعدة، أو لتكملة المتبقى من إيجار الحجرة.

وافق الأبنودى على ضرورة تركى الحجرة، زاد، فاقترح أن نوفر تكاليف النقل، ننقل أثاثى (!!) معاً، وما كنا سندفعه للشيال، نستطيع أن ننفقه على عشاء شهى!.

قرأت للأبنودى - في تلك الليلة - قصة اسمها المكنة، وقرأ لى بعض قصائده، واستمتعنا - بالفعل - بوجبة عشاء طيبة.

كانت الشقة واسعة، ولعلها كانت أنسب الشقق لكى أقيم فيها فترة أطول، لكن الشعور بما هو أقسى من الوحدة كان يتملكنى والجدران تعزلنى عن العالم الخارجى. مساحات واسعة، باردة، خالية، تحيطنى بأسوار العزلة.

***

حين عرضت عمتى أن أقيم معها في حلوان، لم أتردد في الموافقة. تأكد لى أن الحياة بمفردى مما لا أقوى عليه، ليس في مجرد أداء الواجبات المنزلية من تنظيف وغسيل وطهو، وإنما في الونس، أخذ النفس، أو أخذ الصوت.. تلك التعبيرات المصرية ذات المعنى المحدد في أن الإنسان حيوان اجتماعى بالفعل، وأنه من الصعب عليه أن يحيا بمفرده!

لأن عمتى كانت بلا أبناء، فقد اعتبرنى الزوجان ابناً لهما، وكانا - بالفعل - مثلاً للأبوة الطيبة التي تنصت، وتتفهم، وتبذل النصح. ولأن أمى رحلت قبل أن أبلغ العاشرة، فقد كان السؤال يناوشنى: هل الأمومة - والأبوة كذلك-- تختلف عما ألقاه من رعاية؟!

البيت من طابقين. ثمنه عندما أنشأته حكومة الثورة، وباعته - في أوائل الخمسينيات - حوالى السبعمائة جنيه. صالة تفضى إلى حجرة جانبية، ومطبخ، وحديقة بها دورة مياه. أما الطابق الثانى فحجرتان للنوم، استضافتنى العمة في إحداها.

كان المشوار متعباً من البيت إلى محطة حلوان، فركوب القطار إلى محطة باب اللوق، ثم السير إلى الجريدة في شارع زكريا أحمد.

بدا لى الأمر - في بدايته - تسلية. ثم تبينت أن الذهاب والعودة يستغرقان أكثر من خمس ساعات، لا أجد فيها، وسط زحام القطار، ما يغرى بالقراءة، فهي ساعات ضائعة تماماً!

***

ظللت - بعد زواجى - حوالى الشهر في بيت عمتى. ثم عثرنا على شقة في بيت بأرض شريف، اخترناها لقربها من الجريدة، بناية جديدة سمّاها صاحبها الفلسطينى الجنسية حيفا - هذا حقه - خلف بناية أكبر حجماً تطل على أرض شريف. سمّاها الرجل يافا - هذا حقه أيضا! - لكن البنايتين - في الحقيقة - كانتا مثلاً للاستغلال. يافا من عشرة طوابق. أما حيفا فثلاثة طوابق فقط.

لم أر يافا من الداخل، لكن الطابق الواحد في حيفا كان به أكثر من عشر شقق. الأبواب من خشب الصناديق - حقيقة لا مجازاً - فالكلمات الإنجليزية والأرقام التي كتبها المصدرون كما هى، وإن قطِّعت ولصقت بما يصنع أبواباً، والمدخل الضيق على يمينه المطبخ ودورة المياه، وفى نهاية الطرقة حجرتان، واحدة - على اليمين - للنوم، والثانية - وهى المواجهة - للصالون، وحتى أوضح لك مدى ضيق الحجرتين، أشير إلى أننا اكتفينا في حجرة النوم بسرير، كنا نقفز إليه من نافذة حجرة الصالون!

لم تستمر إقامتنا - زوجتى وأنا - في عمارة يافا أكثر من شهر واحد، لكننا تعرفنا فيها إلى عالم شديد الخصوصية، وشديد الغرابة. فلأن البناية كانت قريبة من شارع محمد على، وله صيته - كما تعرف - في دنيا الطرب، ولأن الشارع كان قد اكتظ بساكنيه من العوالم، بحيث سعوا إلى الشوارع الجانبية، فقد اعتدنا النوم - إلى مطلع الفجر -على أصوات الآلات الموسيقية وهى تجرى تدريباتها. وتترامى إلى أسماعنا تعبيرات مثل: أحسنت.. أعد.. يا جمال النبى.. إيه ده.. إلخ .. كما ألفنا طرقات على الباب في غير وقت محدد. نفتح ليواجهنا الواقف بالسؤال: الست فلانة الرقاصة هنا؟

صحونا - ذات قيلولة - على صراخ أنثوى من داخل البيت. تصورنا - لارتفاعه - أن البناية تشهد كارثة. نظرنا - بالفضول والفزع - من نافذة المطبخ المطلة على المنور. السيدة ذات الأعوام الخمسين، ترتدى قميصاً للنوم، وتشهد الجيران - من خلال صراخها ودموعها - على ابنتها الكبرى التي أذاعت أن الابنة الصغرى فرطت في شرفها، وطلبت من الجيران أن يمنعوا الفتاة من فضح أختها.

ماذا فعلت السيدة إذن؟!

كانت إضاءة البناية مركزية، ليس من قبيل الترف كما يبدو، لكن من قبيل الاستغلال، كل شقة لها لمبة واحدة، تدفع مقابلاً لاستعمالها خمسين قرشاً - أسعار زمان! - يختار لها الساكن أنسب موضع في الشقة. فإذا تشاجر البواب مع أحد السكان - وكانت المشاجرات

ظاهرة متصلة! - فإنه يمنع الكهرباء عن كل الشقق. ولم يكن لذلك العقاب الجماعى تأثير في قيمة المقابل الشهرى للمبة الكهرباء!

قرأت عن المجتمعات الهامشية في القاهرة، لكننى لم أتصور أن أتعرف إلي ذلك المجتمع الصاخب، الوحشى. بدت إقامتنا في البناية مستحيلة، هزمتنا مشاعر الوحدة والغربة وعدم الانتماء إلى البيئة المحيطة، واتجهنا إلى مصر الجديدة ..

كم هزنى التأثر وبواب بناية حيفا يودعنا بصوت مشفق: والله كنتم ناس طيبين!..

***

حين استأجرنا شقة الطابق الأرضى بالمنزل رقم ١٥٩ شارع النزهة، كانت لافتة شقة للإيجار تعلو واجهات البيوت، وبالذات في المناطق الجديدة - كانت المنطقة فيما بعد ميدان الإسماعيلية إلى نهاية الخمسينيات صحراء خالية! - ولأن الفارق كان كبيراً بين شقة عمارة حيفا، والشقة الجديدة، فقد وافقت على استئجارها حالاً، حجرتين وصالة، فضلاً عن المطبخ والحمام. بدت - بالقياس إلى شقة حيفا - سكناً جميلاً، أرضية من الباركيه والرخام، وأبواب ونوافذ حقيقية، ومساحات يسهل التحرك فيها.

قال عبد الفتاح الجمل - انعكاساً لفرحتى بالشقة الجديدة:

- هذه شقة يجرى فيها الخيل!

هذا ما تصوره الجمل من رنة الإعجاب في صوتى. ولم تكن الشقة تصلح - في الحقيقة - لجرى قطة. أهملت ابتعادها عن الجريدة، ولم أشغل نفسى بمواصلة البحث. ربما لو أنى فعلت

ذلك لعثرت على شقة أفضل بكثير من التي دفعتنى المقارنة إلى قبولها!. أدركت - بعد قدوم الأبناء - أنها ضيقة للغاية، وأخليت مساحة من حجرة الأنتريه لنوم الطفلين. وكان الباعث الأهم لقبولى فكرة السفر إلى الخليج هو تدبير ما يفى بشراء شقة واسعة. اختفت لافتات " شقة للإيجار ". حلت - بدلاً منها - لافتات التمليك، ظاهرة أفرزها انفتاح السبعينيات.

***

إقامتى في مصر الجديدة تعود إلى بداية الستينيات، وإقامتى في بيتى الحالى - ١٨ شارع الدكتور سليمان عزمى - تعود إلى أواخر السبعينيات. ألاحظ أنى لم أكتب حرفاً واحداً عن هذه الإقامة الطويلة. تخلو كتاباتى من اسم ميدان أو شارع أو حديقة، أو أى ملمح يشى بمكانية مصر الجديدة. الإسكندرية هى الشخصية الرئيسة في معظم ما كتبت . جاوزتها - في محاولات متناثرة - إلى أماكن في القاهرة، لكن مصر الجديدة ظلت غائبة في كل ما كتبت. هى وسيلة عبور ومكان إقامة. يشق المترو أو السيارة شوارعها إلى البيت الذي أقيم فيه. أحيا في مكتبتى، وفى الحنين إلى أماكن الطفولة والصبا والشباب الباكر. أغمض العينين أحيانا، أتخيل أنى لو فتحتهما فسيطالعنى ميدان المساجد وأبو العباس والبوصيرى وياقوت العرش وعلى تمراز والخمس فوانيس والكورنيش وشارع الميدان والحلقة وميدان المنشية وسراى رأس التين واللعب في الشارع الخلفى، ملامح ثبتت في الذاكرة، لم يغيبها الزمن.

حاولت أن أغرس جذورى في الأحياء التي انتقلت إليها بعيداً عن بحرى، عن الإسكندرية، أن أغرس شتلات الذاكرة والحنين في باب اللوق وجزيرة بدران وحلوان وأرض

شريف ومصر الجديدة وغيرها من الأماكن التي تنقلت بينها. أعرف أصدقاء رحلوا عن مواطن الجذور، وأفلحوا في غرس شتلات التواصل، وتجدد الحياة والرؤى والإبداع في فضاءات أخرى، يشحب القديم، أو يغيب تماماً، ويتفرد الجديد بمساحة الفضاءات المكانية كلها، لكن الجذور - جذوري - ظلت في الإسكندرية، في بحرى، في السيالة ورأس التين والأنفوشى، وفى البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبرى.

***

ماذا عن العلاقات الإنسانية التي تكونت، وتوثقت - في القاهرة - بتوالى الأعوام؟

لعلها تظل مجرد ذكريات شخصية، ولعلها تفرض نفسها فتتخلق على الورق في مغايرة لأعمال سابقة.

من يدرى!

سور الأزبكية

كان أول تعرفى إلى سور الأزبكية بائعاً.

قدمت إلى القاهرة وفى حقيبتى - كبيرة نسبياً- ملابس قليلة، وكتب كثيرة - معظم الكتب من مكتبة أبى - أزمعت أن أفعل ما لم يتح لى في الإسكندرية، فأقرأ ما تبقى من تلك الكتب.

الظروف المادية الضاغطة بدّلت خططى تماماً.

كنت أعددت نفسى للإقامة عند خالتى بمصر الجديدة، لكنها تحدثت عن الرجل الغريب - زوجها - الذي يمتلك البيت، ربما يضايقه أن يشاركه حياته شاب مثلى! [عرضت لتلك الفترة المهمة من حياتى في روايتى " كوب شاب بالحليب "]. كان الضياع هو الخيار الثانى لتواصل إقامتى في القاهرة، تملكنى عناد أمواج البحر في أن أعمل بالصحافة، باعتبارها مهنة كتّابة، وأقرب المهن إلى اهتماماتى.

وجدت في بنسيون شارع فهمى بباب اللوق مكان إقامة مناسباً، ست حجرات، كل حجرة بسريرين، قيمتها ثلاثة جنيهات، يشاركنى فيها نزيل سودانى [أذكر اسمه الأول: أحمد]. صرنا أصدقاء حتى انتهت إقامتى في البنسيون، فانتهت علاقتى بكل نزلائه.

تبينت أن مكافأة الجمهورية - حيث عملت بالقطعة، الخبر بخمسة قروش، والتحقيق بخمسين قرشاً - لا تصرف في موعد محدد، لكن حسب التساهيل، فمن الصعب أن أدبر ظروفى على موعد تقاضيها.

حاولت التغلب على الظروف القاسية. اكتفيت بالطعام الساخن يوماً واحداً كل أسبوع، تعده لى خادمة البنسيون. بقية أيام الأسبوع أتردد على مطعم الكشرى بالميدان القريب، أو أشترى خمسة أقراص طعمية بخمسة مليمات، أجعلها غموساً لرغيفين بعشرة مليمات. وكنت أكتفى بوجبتين طيلة النهار، أباعد بين الوجبة والأخرى، فلا تستصرخنى معدتى!

كنت أعرف أن على شلش يعانى ما أعانيه، تطبخ لى المرأة، يرفع غطاء الحلة، ويهمس بدماثته المفرطة: دوّقنا طابخ إيه؟. أعرف أن دافعه ليس مجرد التذوق. أكتفى بالصمت المشفق [بالمناسبة، فقد كانت الوجبة المعتبرة لمن هم الآن في مقتبل العمر - مثلى - لا تزيد عن خمسة عشر قرشاً!]

لكن الحلقات ضاقت حتى استحكمت تماماً. فكرت في أن أتخلص من حمولة السفينة الزائدة، ولم تكن - بالطبع - حمولة زائدة، لكنها كانت كتب أبى التي أودعتها حقيبتى لأقرأها في القاهرة، اقتنيت بضعة كتب بدت لى ذات قيمة أقل من الكتب الأخرى، واخترقت ميدان الفلكى إلى شارع شريف، ومنه إلى عدلى، فميدان الأوبرا، وسرت - بخطوات متمهلة

- أمام باعة سور الأزبكية، أغالب التردد، وأفتش عن الوجه الذي أطمئن إلى صاحبه، وأنه لن يفطن إلى مشكلتى، أو أنه لن يقتحمها بتصرف ما.

كنت قد اعتدت التردد على أماكن مشابهة لسور الأزبكية. أقتصر على الشراء والاستعارة، وأمنى النفس بأن أضيف إلى مكتبة أبى بما يشكل مكتبة هائلة، كتلك التي أراها في المكتبات العامة، أو في الأفلام الأجنبية [خلو الأفلام العربية من " المكتبة " حض سافر على رفض عادة القراءة]. ثمة مكتبة حمامة الفن في شارع إسماعيل صبرى، والمكتبة الثانية للفن الأب في شارع الموازينى. أدفع مبلغاً بسيطاً، أقرأ به ما كان يصدر من صحف ودوريات. وثمة مكتبة في شارع رأس التين، تحدد نشاطها في إعارة الكتب القديمة. اسمها - فيما أذكر - فارس، وإن شحب الاسم، والمكتبة نفسها، في توالى الأيام، حتى أغلقت أبوابها تماماً، وأفادت حصيلتى القرائية كثيراً من مكتبة إخوان الصفا وخلان الوفا بالعطارين، وفرشة بالقرب من مزلقان النجيلى، ودكان سجاير في نهاية شارع النبى دانيال، لعله كان بداية تحول الشارع إلى سوق سكندرية موازية لسور الأزبكية. أذكر قول صاحب الدكان - وإن كنت لا أذكر المناسبة - إن الحد الأدنى لربح الكتاب يجب ألا يقل عن ثلاثمائة في المائة. ظنى أن ربح الرجل كان يفوق ما وضعه كحد أدنى، فقد كان الزبائن كثر. اقتنيت من تلك المكتبة روايات نجيب محفوظ في طبعة الكتاب الذهبى، حتى ما كنت قرأته من قبل، مجرد البحث عن اعتزاز بأن مكتبتى تضم أعمال الفنان الذي اعتبرته - فرط سذاجة - اكتشافاً شخصياً!

بالمناسبة: مرات قليلة واجهت أزمتى المادية الخانقة بالتصرف في بعض ما كانت تضمه مكتبتى.

تلك المكتبات - إلى جانب مكتبة البلدية، والمكتبة الأمريكية بشارع جمال عبد الناصر، ومكتبة المنيرة [أغلقت بلا سبب، مع مكتبات أحياء القاهرة]، ودار المحفوظات بالقلعة، ومكتبات أقاربى، ومكتبة عم محمود - جار الشقة المقابلة - شكلت عالمى القرائى، المصدر الأهم، تنوع المعروض، وتعدد إمكانات المفاضلة، تنقلت بينها بتعدد تنقلى بين المدن والأحياء، في المكتبات، أنت تحتاج إلى مراجعة البطاقات، واختيار ما تراه أقرب إلى ما تبحث عنه، لكن أماكن الكتب القديمة والمستعملة تسهل لك التقليب، والمفاضلة، والانتقاء، أنت تنتقى الكتب التي تحتاجها بالفعل.

- سبق حبى للقراءة إقبالى على الكتابة، أنا قارئ أولاً.

اكتفى فاروق شوشة بنظرة الدهشة وهى يتلقى إجابتى عن السؤال في أمسيته الثقافية: يلاحظ النقاد وفرة كتاباتك!.

وأهملت قول خيرى شلبى المستنكر - بعد أن قلب بين يديه كتاباً كنت أقرأه :

- مازلت منشغلاً بالقراءة ؟! نحن الآن نكتب!

أصارحك أنى أجد متعة في مجرد الوقوف داخل مكتبة، بصرف النظر إن كانت خاصة أم عامة. أشعر أنى في داخل العالم الذي أحبه.

فطنت - بتعدد زياراتى إلى سور الأزبكية - أن القيمة الكلية لما أعرضه هى جنيه، مائة قرش، بصرف النظر عن عدد الكتب أو قيمتها، يقلبها البائع في يديه، وينطق بالكلمة التي أتوقعها: جنيه.

حين استقرت ظروفى المادية، كنت قد تخلصت من معظم الحمولة التي لم تكن - كما صارحتك - زائدة، ما بقى في حوزتى أقل من عشرة كتب، مثل كل منها بعداً مهماً في تكوينى المعرفى، وكانت هى النواة لاستعادة مكتبتى.

ثم عدت إلى الأزبكية شارياً لا بائعاً.

كنت قد بدأت في جمع مصادر ومراجع كتابى " مصر في قصص كتابها المعاصرين ". رويت لك بواعث تأليف هذا الكتاب، لا بأس من أن أعيد الرواية مختصرة: كنت أكتب القصة القصيرة، وأخطط لمشروعات روائية. قررت أن أهب نفسى أكبر فرصة للقراءة، ربما يتبدل في داخلى ما أتهيأ معه للمغامرة، أبدأ مشروعاً إبداعياً، أرضيته المعرفية صلبة، وأفقها واضح.

صرت زبوناً لباعة السور، نشأت بينهم وبينى صداقات، بعضها قائم إلى الآن، سواء من ظلوا أحياء، أم أبنائهم.

عمر!

أهم ما تضمه مكتبتى الآن اشتريته من سور الأزبكية. وإذا كان أستاذنا يحيى حقي قد أثنى على الجزر المجهولة التي قدمتها في كتابى " مصر في قصص كتابها المعاصرين "، فذلك لأن انشغالى - في زياراتى للسور - اقتصر على المصادر والمراجع التي أجد فيها فائدة للكتاب: روايات ومجموعات قصصية وكتب في التاريخ وعلم الاجتماع والسياسة إلخ.. بعضها يعود إلى أوائل القرن العشرين، وربما إلى أواخر القرن التاسع عشر.

ظنى أنه لولا تلك الزيارات المتقاربة لسور الأزبكية، ما كان كتابى - بأجزائه الثلاثة - قد اكتمل على النحو الذي أرضانى.

***

بالإضافة إلى سور الأزبكية، والمكتبات، وباعة الكتب القديمة والمستعملة، فلعله يجدر بى أن أتحدث عن فهيم محمد شلتوت. أدين بفضل الرعاية الإبداعية لعبد الله أبو رواش وعبد اللطيف النشار وأحمد عباس صالح ومحمود تيمور ونعمان عاشور ويحيى حقي وعبد الحميد السحار ونجيب محفوظ ومحمد مفيد الشوباشى ومحمود البدوى وعبد الحليم عبد الله، لكننى أدين بالولوج إلى عالم التراث العربى، والإسلامى، والثبات فيه، لذلك الرجل الذي أفسح لى مكتبه، أرجع إلى ما أطلبه من المصادر والمراجع، لا أغادر مكانى حتى تنسحب أشعة الشمس من جدران البيوت.

لم يكن " الأستاذ " فهيم يتدخل في نوعية قراءاتى، وما أعد لكتابته، إلا أن أطلب رأيه. هو يتيح لى ما أريد قراءته، لا يسأل عن شيء، ولا يفرض وصاية من أى نوع، يعكف على مجلدات يحققها، لا يلتفت ناحيتى إلا إذا استوضحت مستغلقاً، ثم يعود إلى ما بين يديه.

يغيظنى من يسأل عن بواعث اختيارى، يتخذ هيئة العارف، الناصح، يحدثنى عن الكتاب الذي يادوب بدأت في إعداد بطاقاته، كأنه هو الذي سيؤلفه!

قرأت - في تلك الأيام - ما لم أكن أتصور أنى أقرأه، ملأت آلاف البطاقات، وأعددت الكثير من مشروعات الكتابة، أقلها - بالطبع - ما أنجزته، وأكثرها ما اكتفيت بإضافته إلى حصيلتى المعرفية.

محمد فهيم شلتوت مثل لعلماء ترجم لهم في الكتب التي تولى تحقيقها، عاشوا حياتهم بيقين أن العلم ليس مجرد تحصيل معرفى، لكنه أستاذية وبذل للمريدين والتلاميذ والناس العاديين.

فى مقالة لى أشرت إلى أن الثقافة سلوك.

ظنى أن فهيم شلتوت كان أجدر من عرفت بهذا المعنى.

ذلك الجيل

حين رفع صديقى محمد حافظ رجب في وجه أبناء جيل الأربعينيات، مقولته الشهيرة: نحن جيل بلا أساتذة.. اعتبرت نكران جميل، وسوء تعبير، وقلة أدب، وتوالت الاتهامات، فلم تقتصر على علاقة الجيل بالأجيال السابقة، وإنما امتدت - بل تحددت - في علاقات أبنائ-ه بعضهم بالبعض - فقهوة ريش هى الواجهة - بلا سبب - لجيل الستينيات، رغم أنه لم يكن يتردد عليها سوى القلة من أدباء الجيل. أما الباقون، فقد كانوا من فاقدى الموهبة، أو الذين ينشدون البقاء في الحياة الأدبية بأشخاصهم وليس بأعمالهم، بالإضافة إلى حواريى أستاذنا نجيب محفوظ الذين وجدوا في جلسة القهوة فرصة للقائه.. والرأى الأعم أن الخصام هو طبيعة العلاقة بين أبناء جيل الستينيات.

والمثل الذي يطالع جيل الستينيات، في المقابل من ود علاقاتهم المفقود [أجاد نجيب سرور التعبير عنه في بروتوكولاته الشهيرة!] مجموعة لجنة النشر للجامعيين. عبد الحميد السحار الذي رهن مصوغات زوجه، بهدف التغلب على مشكلة تمويل نشر مؤلفات أبناء جيله.. وقد وضعت عن اللجنة كتاباً أعتز به هو آباء الستينيات.

مع ذلك، فإنى واجهت - أحياناً - تلك العلاقة المتميزة بين أبناء جيل الأربعينات - وبالذات مجموعة لجنة النشر للجامعيين - بالكثير من التساؤل والدهشة وعدم الفهم، وصدمت -

في أكثر من مناسبة - لما تبين لى أن الحب الذي يشكل أقوى رابطة بين مجموعة لجنة النشر للجامعيين، وجيل الأربعينيات بعامة، قد غابت ملامحه، وغالبت - في مرات كثيرة - شعوراً بأن الحب لم يكن - كما عبرت بعض الأقوال أو التصرفات - سوى أمنية!

***

كنت أعد كتابى " مصر في قصص كتابها المعاصرين ". تصورت أن بين القصرين هى أول رواية نهر، أو أجيال، في أدبنا المعاصر، وأشرت إلى ذلك في بطاقاتى. ثم تبينت أن رواية عبد الحميد السحار في قافلة الزمان تسبق الثلاثية في توقيت الصدور. وأعدت مراجعة اجتهاداتى، حتى جاء اليوم الذي قدمت فيه مسودات الدراسة إلى نجيب محفوظ، لإبداء الرأى فيما تناقشه الدراسة من أعماله.. وهو الأمر نفسه الذي فعلته بالنسبة لغالبية الأدباء الذين تناولت الدراسة أعمالهم. وأذكر أن نجيب محفوظ أبدى موافقته على منهج الدراسة بعامة، وعلى تناولها لأعماله على وجه التحديد.. لكن الملاحظة الوحيدة التي أشار إليها، هى أنه ربما - هكذا قال - بين القصرين تسبق في قافلة الزمان.

قلت:

- بالعكس.. في قافلة الزمان تسبق بين القصرين بخمسة أعوام تقريباً.

بدا أنه يغالب تردده:

- إذن عودة الروح تسبق في قافلة الزمان.

- لكن عودة الروح ليست رواية أجيال.

- إذن شجرة البؤس.

قلت موافقاً:

- هذا أقرب إلى الدقة.

لم يبد أنه ارتاح إلى النتيجة التي أرادها هو. عدل من وضع الأوراق في مكتبه، ثم اتجه إلىّ بنظرة تلتمع ببريق حزين:

- سأصارحك بشيء.. عندما كان أدباء النشر للجامعيين يجتمعون، في أواخر الأربعينيات، وأوائل الخمسينيات، كل خميس بكازينو أوبرا .. أثقلت أدمغتهم - لفترة - بالحديث عن تطلعى إلى كتابة رواية الأجيال، باعتبارها شكلاً متميزاً في الأدب الأوروبى، وإن لم نكن قد عرفناه في روايتنا المعاصرة بعد.. وأفضت في الحديث عن أبناء وعشاق للورنس، وصورة الفنان شاباً لجويس، وغرفة يعقوب لفرجينيا وولف، وغيرها. وفجأة، غاب عنا الزميل والصديق عبد الحميد السحار، حوالى ستة أشهر، عاد بعدها وفى يده أصول روايته في قافلة الزمان.

تطلع نجيب محفوظ إلى تمثال بوذا الصامت أمامه، وأضاف:

- لا أخفى عليك أنى تأثرت جداً بما فعله السحار. واتخذت - من يومها - قراراً بألا أطلع أحداً على ما أنتوى إنجازه، أو حتى على هلاميات الأفكار التي تطرأ في بالى، فضلاً عن المشكلة الأهم، وهى تغير نظرتى - فيما يشبه التحول - إلى طبيعة العلاقة بينى وبين الأصدقاء، وأن المطلق فيها أمر غير مرغوب!

وقال لى نجيب محفوظ: حتى لو افترضنا أن السحار سبقنى في كتابة رواية الأجيال، فهل سبق شجرة البؤس وعودة الروح؟

وصارحنى محفوظ أن رواية طه حسين شجرة البؤس كان هى العمل الذي استفزه لكى يكتب رواية الأجيال، أو رواية النهر. وأرجأ الفنان تنفيذ حلمه، أو مشروعه، وإن انصرف إلى قراءة رواية الأجيال في كتابات أدباء الواقعية الطبيعية الأوروبيين، ثم بدأ في الإعداد لفكرة الثلاثية، والتخطيط للشخصيات، واتصال الأحداث التالية بأحداث سابقة. روى ذلك كله لأصدقاء كازينو أوبرا - والرواية لمحفوظ - فلم يكذّب خبراً. خلا إلى قلمه وأوراقه، وعاد - بعد غيبة - وفى يده أصول في قافلة الزمان.

قلت: ربما شجرة البؤس يا أستاذ نجيب.. أما عودة الروح فهي ليست رواية أجيال.

- إذن فهو لم يحقق السبق الذي دفعه إلى ما فعل!

وكان للسحار رواية أخرى، لم يروها لى، وإنما سجلها في كتابه صور وذكريات:

".. وذات صباح، دخلت مكتبى لأبدأ في كتابة قصة طويلة، كنت قد استغرقت فيها حتى احتلت كل تفكيرى، ولم يبق أمامى إلاّ أن أضع ما يزخر به ذهنى على الورق، ولكنى ما إن أمسكت القلم في يدى حتى أشفقت على نفسى، فالقصة تروى حياة أسرة تموج بالشخصيات الكثيرة، ليس لها بطل واحد يربطها من أولها إلى آخرها، ما كانت تعالج فكرة بعين--ها، بل كانت تهدف إلى تصوير الحياة كما هى، وتعالج مشاكل الناس العادية والمأل-وفة، لا إرهاصات

ولا انفعالات عنيفة، ولا مواقف مسرحية. وزاد في رهبتى أنى لم أقرأ في الأدب المصرى قصة عولجت بالطريقة التي تداعب خيالى، فالقصاصون المصريون الذين قرأت لهم يسلطون الأضواء على شخصية واحدة، أو شخصيتين على الأكثر، بينما تدور باقى الشخصيات في تلك الشخصية الرئيسة. أما أنا فقد عزمت على أن أسلط الأض-واء على جميع الشخصيات بالعدل، فليس في الحياة بطل أو بطلة، بل شخوص إنسانية، لك-ل منها دوره وأهميته. وقاومت خوفى، وهممت بخط السطر الأول في قصتى، وهو أشق خطوة في أى عمل أدبى " (صور وذكريات - ٢٠٨)

ويضيف السحار في ذكرياته، ما يشى بأن محفوظ أدرك - لسبب ما - أن السحار بدأ في تأليف رواية الأجيال. فقد نصحه بالقول - قبل أن يبدأ في كتابة الرواية - : هذا النوع من القصص يحتاج إلى تجربة ومران طويل, إننى أفضل أن تؤخر هذه القصة " (المصدر السابق - ٢٠٨)

***

وكنت ألاحظ أن الود المفقود سمة العلاقة بين محمود البدوى وعبد الحميد السحار. ولعل الأقرب إلى الدقة أن أقول: إن الود كان مفقوداً من جانب البدوى. وكان ذلك أمراً شبه معلن، فهو يسبق حديثه عن السحار بكلمة " صاحبك "، وهو دائم الانتقاد لفن السحار، ثم لتصرفاته في منصبه، بعد أن تولى رئاسة مجلس إدارة مؤسسة السينما، وهو يأخذ علىّ ما سماه إسرافاً في العناية بأدب السحار، سواء فيما كتبته من مقالات في الصحف، أو في كتابى مصر

في قصص كتابها المعاصرين. وكنت أبدى دهشتى - بينى وبين نفسى - للشعور الذي يحمله البدوى للسحار، ذلك لأن السحار - من خلال اقترابى من شخصيته، ومن حياته، أكثر من خمسة عشر عاماً، لم يكن يضمر، أو يعلن، كرهاً لأحد على الإطلاق. كانت نفسه - في طيبتها وشفافيتها - أقرب إلى نفس الطفل.

والحق أنى لم أحاول التعرف إلى مبعث ذلك الشعور الذي لم يحاول البدوى إخفاءه. فالرجل يكتفى بتوجيه انتقاداته، دون أن يبين عن الباعث الحقيقى. ولم يكن من حقى - بالطبع - أن أتحول إلى محلل نفسى، فأصل إلى جذور المشكلة. كما لم يكن السحار - من ناحيته -يشير إلى البدوى بخير ولا بشر، حتى كان يوم، جلست إلى جانب السحار في سيارته، ليوصلنى إلى بيتى في مصر الجديدة، بعد مصاحبتى له في جولة باستديوهات السينما. وأشار السحار إلى بيته القديم في منشية البكرى - وهو البيت الذي انتقل منه، فيما بعد، إلى بيت آخر في مدينة نصر - وقال في حزن واضح:

- هذا البيت كان سبباً في تصفية لجنة النشر للجامعيين.

هزتنى الكلمات، واتجهت - بكل مشاعرى - إلى الرجل أستوضحه، دون سؤال. قال:

- كان صديقنا محمود البدوى يستقل المترو ذات صباح مع بعض الأصدقاء. وأشار إلى البيت الذي ورثت ثمنه من أبى - فنحن عائلة تجار - وهمس في بساطة: تكاليف هذا البيت

دفعها الأدباء الغلابة من كتبهم التي ينشرها السحار في لجنته بملاليم. وسمعت بما قاله البدوى، فقررت - في اللحظة نفسها - أن تنهى لجنة النشر للجامعيين نشاطها.

***

وذات صباح، حادثت أمين يوسف غراب في مأساة الأديب عبد المعطى المسيرى. كان المسيرى قد أغلق قهوته، ووصل إلى القاهرة بحثاً عن فرص أدبية ومادية أفضل. وحقق له يوسف السباعى استقراراً مؤقتاً بتعيينه في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمكافأة شاملة، تدور - كما أتذكر - في دائرة الإثنى عشر جنيهاً.. لكن الاستقرار المؤقت تحول إلى قلق دائم، عندما عجزت المكافأة الشهرية عن سد الاحتياجات المعيشية للرجل وأسرته، وكان قد أسرف في زيادة أفرادها. وكتب المسيرى عشرات المذكرات إلى يوسف السباعى، وحاول أن يلتقيه، واستعان بنفوذ أصدقائه الشخصيين، ومع ذلك لم يقتنع السباعى بزيادة المكافأة.

وضع المسيرى أمامه سفر أمين يوسف غراب إلى القاهرة، ونجاحه فيها كواحد من كتّاب القصة اللامعين. كانا ابنى مدينة واحدة، وجليسى قهوة واحدة، وثقافتهما متشابهة، إن لم يفق المسيرى " غراب " في حصيلته الثقافية، فضلاً عن أن المسيرى كان قطب جماعة الأدباء التي اختارت قهوته منتدى لها. أتاحت القهوة لعشرات المواهب من أبناء البحيرة أن تصل أصواتهم إلى مركزية القاهرة: محمد صدقى، فتحى سعيد، عبد القادر حميدة، رجب البنا، خيرى شلبى، وغيرهم. وتردد على قهوة المسيرى عدد كبير من نجوم الفكر والأدب: توفيق

الحكيم، يحيى حقي، محمود تيمور، محمد مندور، زكريا الحجاوى، يوسف السباعى، محمود البدوى، وغيرهم.

كان المسيرى - في قهوته - صاحب الرأى الأخير، والحاسم. أما عائد القهوة، فقد كان يكفل له مستوى طيباً من المعيشة يفوق ما كفلته له وظيفة السباعى، لكنه أصر - فيما يبدو - أن يلحق بغراب، وأن يسبقه تصور أن العلاقة في دمنهور يجب أن تكون هى نفس صورة العلاقة في القاهرة.

لكن المسيرى واجه في القاهرة حياة مختلفة تماماً عما كان يحياه غراب. كان غراب عضواً في نادى القصة الذي يرأسه طه حسين، وألحقه السباعى - بمكافأة لا بأس بها - في وظيفة مهمة بمجلس الفنون والآداب. ورحبت الصحف بنشر أعماله، وتعاقدت السينما على نشر بعض تلك الأعمال. أما المسيرى، فقد ظل في غرف-ة الأرشيف الخشبية داخل حديقة مجلس الفنون والآداب، مع حامد الأطمس ومحمد حافظ رجب وعباس محمد عباس، يرضخ للظروف القاسية حيناً، ويحاول التخلص منها حيناً آخر، حتى مات والسؤال يشغله: لماذا غادر قهوته وجماعته الأدبية ومدينته؟

***

تصور المسيرى أنى أستطيع أن ألقى حجراً في بحيرة مأساته الساكنة. ومع أن الظروف لم تتح لى أن أكون صديقاً مقرباً للسباعى، فإنى طرقت - ذات مساء - مكتبه في جمعية الأدباء،

وأعدت شرح مأساة المسيرى، التي كان قد أفاض في شرحها - قبلى - كثيرون، وأنصت الرجل، ثم قال في تأثر لم يحاول إخفاءه:

- لم يفلت المسيرى فرصة للإساءة لى.. فكيف تنتظر منى - وأنا بشر - أن أرد إساءته بإحسان؟!

قلت:

- ربما ليس من حقى أن أستمع إلى التفاصيل، لكن الصيد في الماء العكر هواية البعض ممن يحيون - للأسف - في مجتمعنا الثقافى.

ويوماً، جرى الحديث - مصادفة - بينى وبين أمين يوسف غراب في غرفة مكتبه بمجلس الفنون والآداب، حول مأساة المسيرى، وأنه - لعدة اعتبارات: أديب، وصديق شخصى للسباعى والمسيرى، ومن أبناء دمنهور التي ينتمى إليها المسيرى - يستطيع أن يجد حلاً لتلك المشكلة.

قام غراب من جلسته خلف المكتب، واتجه إلى الباب، فأغلقه، ثم عاد إلى مجلسه، وقال بعد لحظات صمت:

- صدقنى، لا أستطيع أن أفعل للمسيرى شيئاً. قد تبدو المشكلة - في ظاهرها - تافهة - بضعة جنيهات ينالها المسيرى أول كل شهر، فتساعده على مواجهة أعباء الحياة. وكانت تلك مشكلتى يوماً، لأن ظروفى مشابهة تماماً لظروف المسيرى. مع ذلك، فإن مكافأتى الآن تزيد

عن سبعين جنيها كل شهر. أما المسيرى فإنه قد تحول - بلا سبب - إلى بوق دعاية ضد السباعى.

قلت:

- هل نال من السباعى أمامك؟

- أكثر من مرة.. وصدقنى.. كنت أرجو أن أفعل للمسيرى شيئاً، لكنه لم يعط أحداً فرصة لمساعدته!

ولعله يجدر بى أن أشير إلى حقيقة، ربما يسئ فهمها الكثيرون، ممن أعلنوا إعجابهم بكل ما قدمه يوسف السباعى إلى حياتنا الثقافية من خدمات عامة وخاصة، مثل تكوين جمعية الأدباء، ونادى القصة, واتحاد الكتاب، وإصدار مجلة " الرسالة الجديدة "، وتعيين عدد من الأدباء في وظائف حكومية.. ذلك كله مما يصعب إغفاله، أو التهوين منه، وهو بعض الإسهامات الإيجابية للسباعى في حياتنا الثقافية.

لكن وجه العملة الآخر كان قاسياً، بل ضارياً، وهو ما يتصل باعتبارات نفسية واجتماعية ووظيفية، مثلت المكونات الأساسية لشخصية السباعى، وهى مكونات أميل إلى الخير، وإن فرضت المغايرة عكس المتوقع من الشخصية الرقيقة، المحبة، المرهفة. أذكر - بتحفظ - ما كتبه سليمان فياض في تحليله لشخصية السباعى. كانت غايته - في تقدير فياض - هى استقطاب المثقفي--ن. في البداية بالإحسان إليهم، يوفر لهم عملاً ودخلاً قليلاً، ويظلون أبداً

بحاجة إليه، عن طريق المكافآت، ثم عليهم أن يثبتوا ولاءهم لشخصه، يحملون حقيبته عنه حين يرونه، أو ينقلون إليه أخبار الوسط الثقافى، أو يقفون له احتراماً إثر حضوره، أو ينوبون عنه في الرد على معارضيه وخصومه، يكيلون لهم شتى الاتهامات باللون الأحمر تارة، وبالانحراف تارة، وربما بالخيانة تارة أخرى، مصفقين له في الندوات، مستخدمين عضلاتهم وأصواتهم المرتفعة تارة أخرى" (الدوحة - يوليو ١٩٨٦). يضيف سليمان فياض: " كانت كل مقاليد الثقافة تقريباً في يده. وكان نفوذه واسعاً على الصحف، وعلى المجلات، ولكنه لم يستطع أن يملك قلب أحد، أو قلم أحد، ممن يعنيه أن يمتلكهم، سوى بعض المتحلقين والمتزلفين والوصوليين" (المرجع السابق). وكانت مشكلة السباعى - القول لفياض - إنه أراد أتباعاً، ولم يرد رفاقاً وأخوة. أراد جنوداً - وهو الضابط - له عليهم الأمر، وعليهم السمع والطاعة " (المرجع السابق)

كان أشد ما يعيب يوسف السباعى، إنصاته - دون تدبر - لمن يهمسون في أذنه بوشاياتهم وأحقادهم ومكائدهم، لوجه الشيطان، لا لوجه الحق أو العدل، ثم محاولة الانتقام ممن صورتهم له الهمسات أعداء ينبغى اجتثاثهم. أوذى عبد المعطى المسيرى بهمسات الشياطين، واستجابات السباعى، وردود أفعال الأصدقاء، كما أوذى محمد حافظ رجب وحامد الأطمس وغيرهم.

كان محمد حافظ رجب بائع لب، والمسيرى صاحب قهوة، والأطمس نجاراً. كانوا فنانين أصحاب مهن، وكانت " الحرية " هى الميزة الأولى لهم جميعاً، فهم - إن جاز التعبير - موظفون عند أنفسهم، يتساوون من حيث هم فنانون، مع سواهم من الأدباء، بصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية، كل منهم حر في نفسه. فلما أغلقوا محالهم، وأصبحوا موظفين حكوميين، تحددت مكانتهم الوظيفية والاجتماعية - والأدبية أيضاً للأسف - في غرفة الأرشيف الخشبية المقتطعة من حديقة مجلس الفنون والآداب.

وحين تصور حافظ رجب أن صداقته للسباعى يمكن أن تتواصل بالحميمية نفسها- بعد أن أصبح موظفاً بأرشيف المجلس - فإن السباعى شخط ونطر، وأعلن استياءه، وأكد - بالفم المليان - أن الصديق خارج المجلس هو موظف صغير داخله، ينبغى ألاّ يجاوز حدوده!

أحدثت تلك " الواقعة " تأثيراً مدمراً في نفسية حافظ رجب، بدأ بتصويره لشخصية السباعى، في قصصه السوريالية الشكل، رجل مكتب، أو مكتب رجل، وانتهى بتردده على عيادة الطبيب النفسى الشهير عمر الجارم.

أما حامد الأطمس، فإنه كان يعتز بفنه، وبفن الزجل عموماً. ولم يكن يتردد في عيد ميلاد العقاد - مثلاً - أن يبعث إليه برقية مهنئة، ويرد عليه العقاد ببرقية زجلية أيضاً. فلما عين في مجلس الفنون والآداب، صار عليه أن يحترم وضعه في ذيل الكادر الوظيفى، فهو يتناسى

أحاديث الفن قبل أن يجاوز باب المجلس، لا يتحدث إلاّ عن المهام التي يستدعيه من أجلها موظفو المجلس، لا صلة لها بالفن الذي أحبه، وعين في أكبر هيئة ثقافية بالتالى، لأنه أتقنه!

أما عبد المعطى المسيرى، فإنه لم يعد صاحب قهوة، يرحب بمن يشاء، ويلوى بوزه لمن يستثقل ظله. قهرته الوظيفة، فأجبرته على يحمل البوستة على الصينية، وأن يهش ويبش في رؤسائه وضيوفهم، ويحادثه-م بصفاتهم الوظيفية، لا كزبائن قهوة. ثم كانت الوقيعة بينه وبين أذن السباعى عاملاً مباشراً في انطوائيته البالغة التي عجلت بمرض موته!

ولعله من المهم أن أشير إلى واقعة تبين عن حرص السباعى على " الفارس " في شخصيته. ففى أعقاب مذكرة الأدباء الشهيرة التي كانت سبباً في إحالة أعداد منهم - الصحفيين بخاصة - إلى الجمعيات الاستهلاكية وهيئة الاستعلامات، قدم ناقد يحسب على جيل الستينيات، قائمة تضم حوالى عشرين كاتباً من ذوى الاتجاهات اليسارية، أكد أنهم المحرضون الفعليون على مذكرة الكتّاب، وطلب من السباعى أن يقدمها إلى الجهات الأمنية.

وحسب رواية السباعى، فقد اعتذر للناقد بأنه - أى الناقد-- يجيد الاتصال بالمباحث دون مساعدة من أحد!. ومزق قائمة الأسماء أمامه. ثم روى ما حدث للكثير من الكتّاب الذين أعادوا روايتها لآخرين، رواها لى- شفاهة - رفعت السعيد، ورواها - كتابة - سليمان فياض، في مقالة عن يوسف السباعى. رفع اسمه، وإن لم يرفع ملامحه الجسمية والنفسية والوقائع المعلنة.

***

عندما التقيت بالأديب عبد الحليم عبد الله للمرة الأخيرة - قبل أن يرحل عن عالمنا - كان غاضباً، ولجأ إلى تشبيهاته واستعاراته وكناياته التي قال النقاد إنه يفتعلها في أعماله الأدبية، وكانت - في الحقيقة - بعض كلماته العادية، حتى مع أفراد أسرته.

قال لى عبد الحليم عبد الله:

- إن مجتمعنا الأدبى أصبح مثل حجرة الإكو بالإذاعة، التي تكتفى بترديد الصدى، أو أنه مثل قافلة الجمال التي تعيد - في صوت واحد - نداء الحادى ..

وقال كلاماً كثيراً، محوره عقدة الواحد، التي يدين بها مجتمعنا الأدبى. وكان نجيب محفوظ - بالتحديد - هو هذا الواحد.

لم يكن عبد الحليم عبد الله حاقداً على نجيب، بل كان يضمر له مودة عميقة، ويؤمن بفنه، ويعجب بإخلاصه ومثابرته وتحديه لعوامل اليأس، حتى استطاع أن يحقق لنفسه مكانة متميزة وممتازة، لكنه كان يرفض توخى الأسهل فيما تتناوله أقلام النقاد، تكون - بصورة ما - ولأسباب موضوعية، ومفتعلة - رأى عام نقدى مكتوب، أفسح المجال للكثيرين، حتى لمن لم يقرءوا نجيب محفوظ بعناية، أن يناقشوا ويحللوا ويبدوا الرأى. ولن يحتاج الأمر إلى المفاضلة بين الآراء المختلفة، والخروج برأى جديد، لا يصدر عن دراسة بقدر ما يقف على أرضية هشة من الحدس والتخمين والفهلوة إلخ.. وامتدت العدوى، فأصبح الانتماء إلى أدب نجيب محفوظ لازمة ثقافية!

والحق أن غضب عبد الحليم عبد الله لم يكن تعبيراً عن حالة ذاتية، بقدر ما كان تعبيراً عن ضيق من أبناء جيله: السباعى والسحار والبدوى وغراب وغيرهم، بالحفاوة البالغة التي تلقاها أعمال نجيب محفوظ، إلى حد أن بعض رواياته كان يبدأ إعدادها قبل تكملة نشرها مسلسلة، للإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما، بينما يتلقف أعمالهم وادى الصمت، دون أن تقال فيها كلمة نقد واحدة..

أذكر أنى كلمت السباعى - يوماً - عن خيبة أمل أحد الأدباء الشبان في تقبل المجتمع الأدبى لكتابه الأول، فقال في ثورة لم يحاول إخفاءها: قل له يتلهى.. معظم كتبى لم يكتب عنها كلمة واحدة. وأصر السحار - ذات ليلة، ومن قبل أن يسلط عليه منصبه في مؤسسة السينما أضواءه الملونة - أن يقرأ لى حواراً كنت أجريته معه، ونشرته المساء. وأعلن البدوى - أديبنا الكبير الطيب القلب - أن البحيرة سدت منافذها بالجيف وكومات العفن، واكتفى - بالتالى - أن يبدع في صمت، دون أن يحاول حتى تسويق إنتاجه٧.

والأمثلة كثيرة ..

***

وإذا كان غضب ذلك الجيل الأدبى على الحياة الثقافية حقيقة يصعب إخفاؤها، بعد أن تناولتها أحاديثهم ومقالاتهم في الصحف، فإن هذا الغضب لم يصدر رذاذاً على علاقاتهم بنجيب محفوظ، فضلاً عن اعتزازهم به، وتقديرهم لفنه، والتزامه الأدبى.

لغز محير آخر، يضاف إلى قائمة الألغاز التي اتصلت بالإعجاب الذي حظى به الرجل من كل المدارس والاتجاهات والتيارات.. أصدقاؤه كثيرون، وأعداؤه - إن كان له أعداء - أقل القليل.. لكن طيبته الذكية، المتسامحة، وضحكته المجلجلة، وبديهته الحاضرة، وعباراته اللماحة .. ذلك كله، كفل له صداقة، حتى هذا الأقل القليل.

البخل تهمة.. يواجهها هؤلاء الأدباء

إذا كان الجاحظ قد عبر عن اهتمام الأدباء بظاهرة البخل في كتابه المهم " البخلاء " فإن أدباءنا المعاصرين قد عنوا كذلك بالبخل، لا باعتباره ظاهرة أدبية، أبطالها هم الأدباء أنفسهم. مدى ميلهم إلى السخاء والكرم أو العكس، وهل صحيح ما يقال من أن بخل الأدباء يصلح لتقديم مؤلفات جديدة، تطاول - في طرائفها ونوادرها - كتاب الجاحظ الشهير؟

حسين أحمد أمين يرى أن توفيق الحكيم كان بخيلاً، وإن أفلح ظرفه وفكاهته - على حد قول حسين أمين - " في إخفاء المعالم القبيحة لهذا البخل ".

وفى تقديرى، أن البخل صفة أضافها توفيق الحكيم إلى صفات أخرى، أو تقاليع أخرى، حرص على أن تنتسب إليه. فهو صاحب البيريه والعصا وحمار الحكيم وصينية البطاطس وعدو المرأة وراهب الفكر، وغيرها من السمات والصفات التي حرص الحكيم على أن يقدم بها نفسه كنوع من " البروباجندا " التي ظل الرجل حريصاً عليها إلى آخر أيامه. ولعلنا نذكر المعارك التي افتعلها الحكيم في الأعوام الماضية، مثل معركته مع الشيخ الشعراوى وعلماء الدين، وكتابة رسالة باسم أديب شاب [ثبت - فيما بعد - أنه هو الحكيم نفسه، بعد أن كتب الحروف الأولى من اسمه مقلوبة!] يهاجم الأدباء الشيوخ - والحكيم من بينهم - ثم رد الحكيم على الرسالة التي وجهها إلى نفسه، ومعارك أخرى، كان أصدق وصف لها ما قالته بنت الشاطئ:

هذا هو الحكيم. حياته في إثارة المعارك من حوله، فلا تغضبوا لجرأة آرائه، إنما هى محاولات للفت الأنظار!

وقد روى يحيى حقي عن أيام زمالة توفيق الحكيم في مدرسة الحقوق، بأن مظهر الحكيم، ولبسه كانا أقرب إلى الشذوذ، حتى قبل أن يرتدى البيريه، ويمسك العصا، ويتحدث عن حماره وصينية البطاطس وعداوته للمرأة، وغيرها من التأليفات الحكيمة!

لكن الحكيم - أشهد شخصياً بحرصه على أن يدفع ثمن " المشاريب " في جلوسى إليه بفندق سميراميس - كان كريماً بلا حدود، وإن ادعى الحرص على القرش والجنيه، ويهتف بفرحة طفل إذا حصل على مبلغ لم يكن يتوقعه!

مع ذلك، فإن الحكيم كان يصر على أن يدفع " الحساب " لجلسائه، يشاغبهم ويشاغبونه في " البخل "، وإن تكفل هو بالحساب في النهاية!

وقبل وفاة وحيده إسماعيل، كان يقيم مع أفراد فرقته الموسيقية في بيت أبيه، يأكلون، ويشربون، على نفقة الأب الذي ادعى البخل لمجرد الدعاية!

ويروى ألفريد فرج أنه كلما اقترب من الحكيم، وزادت معرفته به، كان يتكشف له ما يثير دهشته، وهو أن الحكيم نفسه كان مصدر الشائعات المتوترة عنه. كان يدعى البخل، وهو ليس كذلك، ليصد الطفيليين الطامعين في سخاء مشاعره!

وأذكر أن موسى صبرى سأل الحكيم يوماً: لماذا أنت رجل بخيل؟

قال الحكيم: لكى أكون كريماً أو بخيلاً، يجب أولاً أن أكون صاحب مال كثير، وخير وفير.

قال كمال الملاخ: هل تريد أن توهمنى إنك رجل فقير؟!

قال الحكيم: هذه حقيقة، وإلا فقل لى أنت: من أين يأتينى المال الكثير؟

وأضيف إلى ما قاله الحكيم إن هذه هى الحقيقة بالفعل، فالأدب لا يؤكل الذين أدركتهم حرفته عيشاً.

ولعل الدليل الأوضح على أن الحكيم كان أبعد الأدباء عن صفة البخل التي أجاد افتعالها - لزوم الدعاية كما قلنا - أنه لم يخلف الثروة الهائلة التي تساوى ما حصل عليه من مرتبات ومكافآت وجوائز، لو أنها ذهبت بالفعل إلى أحد البخلاء، لجاوز ما حصل عليه ورثته الأرقام الستة!

***

وقاسى الأديب الكبير محمود تيمور كثيراً من " طمع " صغار الأدباء وفقرائهم، باعتبار أن " تحت القبة شيخ " - كما يقول المثل - بمعنى أنه كان ثرياً، ولن تنقص ثروته لو أنه تبرع ببعض ما عنده إلى أصحاب الجيوب الخالية.

ومع أن تيمور دفع عن نفسه تهمة الثراء، وأن ثورة يوليو صادرت أملاك أسرته، فلم يبق في حوزتها سوى أقل القليل، فضلاً عن أن مرضه الطويل حال بينه وبين ممارسة عمل ما يدر عليه دخلاً محدداً. مع ذلك، فقد ظلت نظرة الأدباء إلى تيمور على أنه من كبار الأثرياء. ولأنه

واحد من القبيلة الأدبية، فمن الواجب أن يساعد بقية أفراد القبيلة - وبخاصة الفقراء منهم - كلما وجد فرصة.

والحق أن محمود تيمور لم يكن في حاجة إلى ملاحظات الأدباء، وما إذا كان سخياً أو العكس، فجلسة الرجل الشهيرة في حديقة جروبى بشارع عدلى، كانت مقصد الكثيرين من كبار الأدباء وصغارهم، يشربون المرطبات، ويأكلون الجريب فروت، أو خلطة الفواكه، كما كان يسميها، نظراً لعضويته في مجمع اللغة العربية. فإذا طلب منه أحد الأدباء الشبان مجموعة أعماله، بادر الرجل بإرسال كل مؤلفاته برجوع البريد، لا يشغله إن كان صاحب الرسالة أديباً بالفعل، وإنه يريد قراءة أعمال تيمور، أم إنه يريد أن يحصل على مكتبة مجانية، و" اللى ببلاش كتّر منّه "!

بالإضافة إلى ذلك، فقد أضاف تيمور إلى مسئولياته رعاية الأدباء، بشراء الأعمال الأدبية المترجمة، وإهدائها لمن لا يحسنون اللغات الأجنبية، حتى يتابعوا أحدث الأعمال والنظريات الأدبية في العالم.

وكان الأديب الراحل أمين يوسف غراب يعتز بأن الكتب المترجمة التي أهداها إليه تيمور منذ بداية حياته الأدبية، هى التي صقلت موهبته، وفتحت له نوافذ على الإبداعات العالمية، لم يكن يتاح له النظر من خلالها, لولا هدايا تيمور!

***

كان حكم الأدباء على يحيى حقي أنه بخيل. حيثيات حكمهم أن الرجل لم يكن يقدم لضيوفه سوى الشاى أو القهوة أو كوب الماء القراح، والتسمية من عنده، لكن حقى دحض الفرية بتصرفين أثبتا أنه ينتمى إلى قبيلة الكرماء. أما التصرف الأول، فهو تبرع يحيى حقي بمكتبته الضخمة لجامعة المنيا، وهى مكتبة حافلة بمئات الكتب في فروع الإنسانيات المختلفة، إلى جانب بعض المؤلفات النادرة. أما التصرف الثانى، فقد أحاطه الرجل بسرية، لولا أن صديقى الأديب الراحل محمد روميش هو الذي أعلن ما حدث: أصيب روميش بالمرض اللعين، وأعجزه تدبير العلاج ونفقات الدواء. ولأنه كان أقرب الأدباء إلى قلب يحيى حقي، لا يترك مناسبة دون أن يؤكد حبه له، ولفنه، ولقدرته المتفوقة على التقاط الجزئيات الصغيرة في بانوراما القرية المصرية. عرض على روميش أن يتكفل بمصاريف رحلة العلاج في الخارج، والتي أشار بها الأطباء المصريون، لكن روميش - وكان أدرى الناس بظروف حقى المادية، وأن جائزة الملك فيصل كانت هى " المورد " الوحيد الذي حصل عليه في الأعوام الأخيرة إلى جانب معاشه - روميش رفض العرض بشدة، وأصر أن تتكفل الدولة بمساعدته.. أليس مواطناً مصرياً ؟!.وإذا كانت الطائرات الخاصة تنقل هذه الفنانة أو تلك للعلاج في الخارج، فإنه ينتمى - بقوة - إلى العائلة الفنية. يشهد بذلك النقاد، ويشهد القراء أيضاً، عندما أقبلوا على اقتناء الطبعة الثانية من مجموعته الرائعة " الليل الرحم ".

ثم وافق روميش - بإلحاح من أستاذه - أن يلجأ حتى إلى تلاميذه في وزارة الخارجية، فبذلوا المساعدات الأدبية والمادية ليسهل سفر روميش في رحلة العلاج. وتجمع من المال ما يساعد على الوفاء بالغرض، لكن قلم رئيس الوزراء تردد في توقيع تأشيرة الموافقة على السفر حتى رحل روميش عن عالمنا.

كان رأى يحيى حقي أن البخل قمة الأنانية، فالبخيل متبلد الحس، والبخل يشل الغرائز على ما هى عليه من تحكم وسلطان، ومن نفع أيضاً!

***

أما نجيب محفوظ، فقد دفع عن نفسه، وعن أسرته، شر الحسّاد عندما أعلن عن تبرعه بمبلغ كبير من جائزة نوبل لبعض الحالات المرضية، وإن اعترف - غداة إعلان فوزه بالجائزة العالمية - أنه يحب المال! (اليمامة السعودية - ١٩٨٨/١٠/١٢) لكن الاتهام الذي واجهه محفوظ من أفراد القبيلة الأدبية أنه لم يخصص جزءاً من الجائزة لمسابقة أدبية باسمه، يفيد منها الأدباء الشباب.

والحق أن اتهام محفوظ بالبخل ليس وليد نوبل، لكنه يبدأ بداية تنظيمه الندوات التي أقيمت منذ الأربعينيات باسم نجيب محفوظ، سواء في كازينو أوبرا، أو قهوة ريش، أو قشتمر، أو عرابى، أو كازينو النيل، وغيرها من الأماكن العامة التي استلهم منها محفوظ أهم أعماله. فالرجل يدفع حساب من استضافهم في ندوته بالاسم، من دعاهم إلى الالتقاء به في الندوة

لإجراء حوار، أو للدردشة. أما هؤلاء الذين سعت بهم أقدامهم إلى المكان، فإن عليهم أن يدفعوا ثمن طلباتهم.

ولو أن نجيب محفوظ تكفل بدفع حساب كل الجالسين، فمن المؤكد - في تقديره - أنه لن يبقى من راتبه الشهرى - كموظف - ما ينفق منه على أسرته!. ويدفع الأدباء قيمة طلباتهم، ويوجهون الاتهام - دون أن يعلنوه - إلى كبير القعدة، بأنه حريص أكثر من اللازم، أو - في الأدق - بخيل، ويتساءلون : أليس للأستاذ ضريبة يجب أن يدفعها بطيب خاطر؟!

وأشاع بعض الأصدقاء القريبين من نجيب محفوظ، أن الرجل كان يفضل على مائدته اللحم المفروم، توفيراً للنفقات!.

ولم أصدق تلك الشائعة بالطبع، واعتبرتها فرية مما تجيد أخيلة الأدباء اختراعه!

نجيب محفوظ يغلق السماعة الطبية حتى لا تصل إليه تلك الملاحظات، ويظل على رأيه بأنه يجلس في أماكن عامة. قد يدعو أصدقاء، فيتكفل بأثمان مشروباتهم. وعلى الزبائن الدائمين أن يدفعوا قيمة ما طلبوا!

***

أما عبد الحميد السحار، فلم يكن بخيلاً، ولم يكن - في الوقت نفسه - مطلق الكرم، طبيعته الاقتصادية كانت تملى عليه تصرفات محددة، فهو - على سبيل المثال - يشجع أبناءه على قضاء الإجازة في المصيف، شريطة أن ينفقوا عليها من جيوبهم. كانوا يحصلون على كميات من

مطبوعات مكتبة مصر، يخصصون لها كشكاً أو ما يشبهه، على شاطئ البحر، ومن هامش الربح الذي يحصلون عليه يتولون تغطية تكاليف المصيف.

لم يكن السحار يريد لأولاده أن يشبوا مدللين، ولا أن يعتمدوا على غيرهم - حتى لو كان والدهم - في الإنفاق على أنفسهم، خاصة بعد أن كبروا، والتحقوا بوظائف: أنا أساعدك، على أن تساعد نفسك.

وإذا كانت طبيعة السحار العملية قد فرضت عليه ذلك الأسلوب بالنسبة لأبنائه، فإنه لم يكن يستطيع أن يفعل الأمر نفسه مع الأدباء الشبان الذين " طمعوا " في مكانته، فلجأوا إليه يطلبون مساهمته في نشر أعمالهم الأولى. أغراهم بذلك ما كتبه السحار كثيراً عن إقدامه على بيع مصوغات زوجته ليبدأ بثمنها مشروع لجنة النشر للجامعيين، وهو المشروع الذي قدم معظم أبناء جيل الأربعينيات: أمين يوسف غراب، محمود البدوى، السحار، محفوظ، صلاح ذهنى، باكثير، عبد الحليم عبد الله، أحمد زكى مخلوف، وغيرهم .

لم يحاول الأدباء الشبان الذين طلبوا من السحار أن يساهم - مادياً - في نشر مؤلفاتهم، أن يتبينوا البواعث التي دفعته إلى إلغاء مشروع لجنة النشر للجامعيين. تحمل الرجل - مادياً ونفسياً وعضوياً - حتى استطاع أن يجعل من المشروع أهم الإنجازات الثقفية في الأربعينيات. ثم نقل إليه أحدهم ما قاله الأديب الراحل محمود البدوى، وهو يشير إلى عمارة للسحار في حى منشية البكرى: هذه العمارة شيدت بفلوس الأدباء.

قرر السحار أن يلغى المشروع.

لكن أمل الأدباء في مساهمات الرجل ظل قائماً: طلب منه المسرحى الراحل ميخائيل رومان أن يقرضه مبلغاً يطبع به كتاباً له. وأقرضه السحار المبلغ، وانتهى أجل السداد دون أن يظهر رومان ثانية في حياة السحار، اختفى تماماً، واختفى القرض الحسن بالتالى. وكان تقدير السحار أنه لو لم يساعد ميخائيل رومان، فربما ظل محتفظاً بصداقته، وأنه خسر تلك الصداقة في اللحظة التي أقرضه فيها ما طلب.

كان للسحار منطقه المعلن، فهو يساعد من يحتاج إلى المساعدة بالفعل، سواء كان أديباً أم لا - هذا إنسان يحتاج إلى عونى، فلأساعده، صدقة أو زكاة، فلا أنتظر السداد. أما من يقترض مبلغاً للإنفاق على مشروع له لا يتصل مباشرة بهمومه الحياتية، مثل إصدار إنتاجه الإبداعى، فإن عليه أن يرد ما أخذه.

منطق معقول كما ترى. فأنا أساعدك لتنفق على متطلبات معيشتك. أما إذا أخذت نقودى لتنفق على " هواياتك " فإن المحتاجين أولى بتلك النقود.

***

وقد أمضيت شهراً كاملاً في الجزائر وموريتانيا، بصحبة الإذاعى الكبير محمد فتحى. لاحظت أنه ينفق عن سعة، لكنه لا يتنازل عما يجد أنه حقه، مهما يبدو تافها .

قلت:

- حدثتنى عن المبالغ التي استطعت ادخارها لتضمن لك - كما قلت - شيخوخة طيبة. ألاحظ أنك تطلب ما تستحقه بالسحتوت!

أومأ برأسه:

- هذا صحيح، حرصى على المبالغ البسيطة هو الذي يشكل المبالغ الكبيرة، السنت جزء من الدولار!

***

البخل - في تقدير مولود فرعون - هو الصفة الأساسية التي تجعل الإنسان غنياً، والأدباء بعامة ليسوا أغنياء، ربما يكون بعضهم ميسور الحال، يستطيع الإنفاق على أكله وشربه وثيابه وبعض الملذات الصغيرة، لكن الأدباء - بالقطع - ليسوا أغنياء. أعنى هؤلاء الذين لا يشتغلون بالاقتصاد أو التجارة أو حرف ومهن أخرى. من الصعب إذن أن يكون الأديب بخيلاً، فرق بين القدرة على الإنفاق، والرغبة في عدم الإنفاق، بين سطوة الظروف المادية والبخل.

هل كان الحكيم غنياً؟ هل كان كذلك العقاد وطه حسين؟ وهل كذلك بقية الأدباء؟

أتذكر قول نجيب محفوظ: الكتاب الذي يبيع ثلاثة آلاف نسخة، من المستحيل أن يصنع ثروة. حتى عائد الفيلم السينمائى أو التليفزيونى المأخوذ عن العمل الأدبى لا يمكن أن يضيف ما يحقق ثروة!

أصداف

- ١ -

الفن عالمى الذي أوثره بكل المودة. حقيقة أحرص على تأكيدها في كل مناسبة، وأحياناً بلا مناسبة.

وإذا كانت الصحافة هى الوظيفة التي اخترتها، فذلك لأنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يحيا الأديب في بلادنا مما يكتب.

العقاد هو الاستثناء الوحيد في رأى الكثيرين. لم يعمل بوظيفة، وأتاح له قلمه أن يحيا بلا لجوء إلى وظيفة ثابتة في الصحافة, أو غيرها. نسى هؤلاء - أو تناسوا - أن يوميات العقاد في الأخبار القاهرية، صدرت في بضعة مجلدات، وأنه كتب في موضوعات - أعوام الحرب العالمية الثانية بالتحديد - ربما كان قد اعتذر عنها، لو أنه لم يكن في حاجة إلى المال.

صحبت صديقى الصحفى الكويتى خالد الريس إلى نجيب محفوظ. أجرى معه حواراً لمجلة عالم الفن . قبل أن أنصرف، أسرّ محفوظ في أذنى - بأبوته الحانية:

- حاذر أن يصبح إجراء الأحاديث من بين اهتماماتك، نظرتنا إليك أعمق وأكبر!

هزتنى الكلمات. الأدق أنها ضايقتنى. لم أكن أنتسب إلى حوار خالد الريس إلا بالصداقة لطرفى الحوار، ومهمة التعريف.. لكننى - آنذاك - كنت أهدر الوقت والجهد ببراعة مذهلة، في اهتمامات أخرى - هل تستحق هذه الصفة فعلاً ؟ - من بينها - على سبيل المثال - إصدار

ثلاثة كتب سياسية حول قضية الجنوب العربى [اليمن الجنوبى فيما بعد] والتحرير في مجلات عمالية ونقابية. وأسرفت على نفسى - عناقاً للحاجة المادية - فألفت بأسماء الآخرين مقالات وكتباً، تقاضيت مقابلاً لها من ثقب إبرة.

رويت لعبد الفتاح الجمل ما حدث [عبد الفتاح الجمل - إن كنت لا تعرفه - هو الحادى، والراعى، والموجه، للغالبية من أبناء جيل الستينيات] قال الجمل:

- نجيب يهبك النصيحة ويده في الماء.. هل يكفيك المرتب؟!

والحق أنى فكرت طويلاً في الكتابة الدرامية. ربما هى الأقرب - والبديل - لعالمى الذي أوثره. والتحقت بمعهد السيناريو، وتتلمذت على أساتذة الدراما: صلاح أبو سيف وصلاح عز الدين وعلى الزرقانى وغيرهم. وكتبت في أوائل الستينيات تمثيلية سهرة إذاعية بعنوان النقاب، أعددتها عن رواية لعبد الحميد السحار، لكن السراديب والمتاهات التي اضطررت لخوضها حتى أذيعت التمثيلية، ثم المقابل الذي بلغ اثنى عشر جنيهاً بالتمام والكمال، أكد لى أن المال الذي يتيح لى وقت فراغ أخلو فيه إلى عالمى، ووقت الفراغ نفسه، يتوفران - بصورة فعلية - في تلك الأعمال الهامشية التي كنت أضع اسمى - مضطراً - على أقلها، وأحذفه - برضى - من معظمها. ولك أن تتصور أن النقاب احتاجت إلى إعداد جاوز الأشهر الثلاثة، وإلى مراجعة مع المخرج شهرين آخرين، فانتظار لإذاعتها أربعة أشهر أخرى.. والمقابل حدثتك عنه، بينما تحتاج الأعمال الهامشية إلى ساعات محدودة، ومحددة، أتقاضى أجرها فور التقديم، لأفرغ -

من بعد - إلى ذلك العالم الذي كنت - ومازلت - أتوق لأن يصبح هو - لا سواه - عالمى الأوحد.

الصحافة إذن هى أقرب الأعمال إلى مهنة الكتابة الأدبية. القلم أداة، والتعبير وسيلة، والصحيفة تنتسب إلى المطبوعات التي يخاطب الكاتب - من خلالها - قراءه.

لم أضمر للصحافة حباً ولا كراهية. أمارسها كعمل، وعادتى أن أحاول الإجادة في كل عمل أوافق عليه، حتى لو غادر إطار اهتماماتى. أنتزع رداء مشاعرى، وأقبل عليه بهمة حتى أنجزه. أشعر بالغيظ - والحسرة أحياناً - حين أضطر إلى هجر ما بيدى من عمل أحبه، إلى عملى الصحفى، أو إلى تلك الأعمال الهامشية التي كان مقابلها عاملاً مباشراً في تفرغى - على سبيل المثال - لكتابى مصر في قصص كتابها المعاصرين بأجزائه الثلاثة التي يجاوز مجموع صفحاتها ثلاثة آلاف صفحة.

من هذا المنطلق وحده، يأتى إقبالى على العمل، أيا كان، مادمت قد وافقت عليه، بحيدة وجدية واهتمام- أتيح لى تحقيق بعض الخطوات التي يمكن أن تنتسب إلى النجاح في عملى الصحفى. وبلغ حسن الظن في أنى " كفاءة صحفية ممتازة " - والتعبير لأستاذى عبد المنعم الصاوى - أن الصاوى رشحنى خبيراً في مركز الدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والتعمير، ألقى المحاضرات في أصول الفن الصحفى وفروعه وقواعده وأسراره وخفاياه. وثمة - في أقطار

عربية - من يرون أنى أفدتهم باجتهاداتى، وإن تمنيت - دوماً - أن يجدوا الفائدة نفسها - أو أقل - فيما ينطوى تحت ذلك العنوان الذي يتصدر الصفحة الأخيرة من كتبي: مؤلفات فلان!

مع ذلك، ولأنى لست صحفياً بحق وحقيق - لم يبق إلا الاعتراف على حد التعبير الشعرى! - فقد أفلتت منى - ببساطة - " خبطات " صحفية، أزعم أن سواى ممن يجيدون الصحافة، كانوا سيقبضون عليها، لا يتركونها قبل أن تصبح تحقيقات مثيرة، يضيفونها - في اعتزاز - إلى رصيدهم الصحفى.

- ٢ -

كان لقائى الأول بعبد الحميد السحار في أوائل الستينيات. رجوت نجيب محفوظ أن يدلنى على كتّاب ومراجع، أستعين بهم وبها في كتّابى مصر في قصص كتّابها المعاصرين. اتصلت - بتوصية منه - بإحسان عبد القدوس الذي اكتفى بأن أحالنى إلى سكرتيرته السيدة نرمين، فأهدتنى - باسمه - بعض رواياته ذات الاتجاه السياسى. اتصلت كذلك بعبد الحميد السحار، الذي بدا ترحيبه - عبر الهاتف - طيباً، وأبوياً، وآسراً، ورحب أن ألتقى به في مساء اليوم نفسه.

ذهبت إليه في مكتبه بالمؤسسة الاقتصادية-

كان مديراً عاماً لها- التقيت هناك - للمرة الأولى أيضاً - شقيقه الناشر سعيد السحار، صاحب مكتبة مصر. تساءلت - بينى وبين نفسى - وأنا أصافحه: هل أصبح - ذات يوم - شيئاً، فيضمنى إلى قائمة مؤلفيه؟

رحب بى السحار، وعرفنى بالعديد من الرجال المشاعل في حياتنا الثقافية، واعتبرنى ابناً، واعتبرته أباً.

كانت عقدة نجيب محفوظ قد اكتملت تماماً في نفوس أبناء جيله. أقام له الأهرام حفلاً في عيد ميلاده الخمسين، حضره الحكيم وأم كلثوم، وأعد الصديق الراحل صلاح طنطاوى معرضاً فنياً، مستمداً من زقاق المدق وخان الخليلى والثلاثية، وخصصت الكاتب المصرية

عدداً في أدبه وحياته، وكتبت مقالات، وأجريت لقاءات وأحاديث، بدا الرجل بها نجماً ساطعاً، متفرداً، بين أبناء جيله.

كان السحار يحب نجيب محفوظ. وكان يعترف أنه أجدر أبناء جيله بمكانته الروائية المتقدمة، وإن تمنى أن يسبقه في الكتابة الدينية، وأن يقترب منه كروائى.

حرضنى السحار على أن أعد أعماله في الإذاعة. وأعددت النقاب - كما رويت لك - ولم يعترف بقرارى أن تكون هذه هى محاولتى الأولى والأخيرة. صحبنى إلى يوسف الحطاب، وتحدثنا في إعداد قلعة الأبطال إذاعياً، وبدأت - وصلاح طنطاوى - في تحويل جسر الشيطان إلى مسرحية - وكان الإعداد المسرحى موضة آنذاك - وكتبت في الهلال - بطلب منه - مقالة عن المغزى الأخلاقى في أدب السحار.

قال لى يوماً:

- أرجو أن يعرف ابن عمى إنى أنا الكاتب عبد الحميد السحار!..

قلت متعجباً:

- ألا يعرف ذلك؟

- يسألنى دائماً عن ذلك الكاتب الذي لا يعرفه، والذى يشابه اسمه اسمى!

ولأن مستقبلى كان أمامى، ولأن السحار كان ينظر - بلا ارتياح - إلى الأعوام الخمسين التي خلفها وراءه، فقد سألنى - ونحن نحتسى الشاى في كازينو تريامف بمصر الجديدة - :

- هل تريد أن تكتب قصة الثورة؟

- كيف؟

- في حوزتى عشرات التقارير والروايات التي حصلت عليها من قادة الثورة، ولأنى أريد أن أتفرغ للكتابة الروائية، فقد فكرت أن تتولى أنت تسجيل تاريخ الثورة بدلاً منى.

كبرت في مخى: أكتب قصة الثورة، ألتقى قادتها، أجالسهم، أستمع إليهم، أناقشهم، أستوضح ما قد يغمض، أطلب الإفاضة في هذه النقطة أو تلك. فرضت المسألة نفسها، بدت حلماً يطاردنى في الصحوة والنوم، نافذة مغلقة تمنعنى من التطلع إلى ما ورائها. أحلت كل ما كان يشغلنى إلى بند التأجيل، أصبحت كتابة قصة الثورة شاغلى الوحيد.

دفع إلى السحار بأوراق، سجل فيها ما أتيح له معرفته من قصة الثورة. لم يكن يزيد - في الحقيقة - عما نشر، وعرفه الجميع. ثم دبّر لى لقاءات بثلاثة من الذين شاركوا في قيادة الثورة: جمال سالم وأنور السادات وحسن إبراهيم. حاولت أن ألتقى عبد الحكيم عامر، فاعتذر مدير مكتبه - على شفيق - بأن وقته لا يتيح له رواية الذكريات.

شجع الثلاثة الذين وافقوا - بتزكية من السحار - على أن أتولى تسجيل رواياتهم لتاريخ الثورة، منذ كانت فكرة، إلى ما بعد قيامها.. شجعوا الفكرة تماماً، ووعدوا بالتقليب في أوراقهم، واستعادة ذكرياتهم. وأهدانى أنور السادات كتابيه قصة الثورة كاملة ويا ولدى هذا عمك جمال.

وتهيأت لجلسات مطولة، أستمع إلى الروايات المثيرة - لابد أن تكون كذلك! - عن قصة قيام الثورة.

لكن السحار نصحنى، فجأة - في إحدى جلساتنا بكازينو تريامف - أن أهمل الموضوع، أعتبره كأنه لم يكن.

تساءلت في دهشة:

- لماذا؟

- رواية قصة الثورة الآن من حق عبد الناصر وحده.

- السادات سبق له الكتابة في الموضوع نفسه.

- كان ذلك في بدايات الثورة. أما الآن، فقد يواجهون الحرج لرواية أشياء ربما يفضل " الرّيس " أن يخفيها، أو يهملها، أو يرون في بعض الأحداث ما يناقض رأيه.

وشوح بيده:

- إيثار السلامة أضمن!

أعترف أن الدافع الأهم لترحيبى بتسجيل قصة الثورة، كان تحقيق الحلم بأن أقابل عبد الناصر. أصافحه، أجلس بالقرب منه، أحادثه، أتأمل العملقة والزعامة والأسطورة، أحدق في العينين الملتمعتين، والفودين اللذين وخطهما الشيب. حتى سمرة الوجه والعروق الصغيرة في البشرة وظاهر الكفين. تصورته يحدثنى بنبرة صوته الواثقة المتميزة، أتجرأ فأسأل، أو أطلب

الإفاضة. عبد الناصر هو الأب الشرعى لجيلنا، أحببناه مطلقاً, لم يصرفنا عن ذلك سجون, ولا معتقلات, ولا إرهاب أمنى. هو الذي أتاح لنا التعرف إلى كل الثقافات، والتفكير بصوت عال، ومناقشة ما كان في الماضى أقرب إلى الزندقة. جعل السياسة في حياتنا خبزاً وغموساً، دعانا إلى التحديق في وجه مصر، وإلى التيقن من أنها جزء من الكل العربى. بدت مسامرات الجيب وروايات الجيب وكتب فؤاد القصاص وعزيز أرمانى وفائق الجوهرى وفاروق صادق سخافات، أو عبث، وربما جرائم، بالقياس إلى إصدارات المكتبة الثقافية أم قرشين، وسلسلة أعلام العرب، وتراث الإنسانية، والكتب السياسية الجادة، وإضافات توفيق الحكيم وسيد عويس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وزكى نجيب محمود وصلاح عبد الصبور وصلاح جاهين ولويس عوض وعبد الرحمن الشرقاوى، وعروض الفرقة القومية للفنون الشعبية وفرقة رضا، ومسرحيات نعمان عاشور وسعد الدين وهبة وألفريد فرج ومحمود دياب وميخائيل رومان ولطفى الخولى، وأغنيات عبد الحليم حافظ وأم كلثوم، وألحان السنباطى وعبد الوهاب والموجى والطويل وبليغ، وتشكيليات صلاح عبد الكريم والجزار والسجينى والنجدى وندا وأفلاطون وسرى وحليم وسيدة، وتعمير الصحارى والتصنيع وتأميم القناة والسد العالى وتقريب الفوارق الطبقية ومجانية التعليم والحياد الإيجابى وعدم الانحياز والخطب المشتعلة حماسة والمواقف التي تدين، وتحدى - في بساطة - قوى عظمى، كانت في حياة جيل الآباء صخوراً يصعب مناطحتها.

عادت الخطوة الأولى إلى موضعها، بعد أن طال وقوفها في الهواء. حمدت الله أنى أصغيت لنصيحة السحار الملمّحة، فلم أستبق الأحداث، وكتمت على الخبر ماجوراً، وإن شغلنى السؤال أحياناً: لو أنى كتبت قصة الثورة.. هل كانت نفسى الضعيفة تقوى على الابتعاد عن الكتّابة السياسية؟!

- ٣ -

بعد وفاة العقاد، تناولت الصحف قصة الفتاة التي انتحرت حزناً لرحيله. ولمّحت بعض الأقلام إلى أن الفتاة المنتحرة لم تكن مجرد معجبة. تحدثت الصحف كذلك عن الخلافات التي اشتعل أوارها بين عامر العقاد - ابن شقيق الكاتب الراحل - وبقية أقربائه، والتي وصل بعضها إلى ساحات المحاكم. وكان من بين هؤلاء الأقرباء زميل في المساء القاهرية، هو سيد العقاد. كان عسكرى النشأة والدراسة، وإن تفرغ - فيما بعد - للصحافة وكتابة الدراسات الأدبية.

كانت صلتى بسيد العقاد أقرب إلى الزمالة منها إلى الصداقة. لم يكن فارق السن الكبير بالقطع - هو السبب - كان بالنسبة لى - حتى ذلك اليوم - مجرد زميل قديم، تذكرنى قامته الطويلة الممتلئة بوصف نجيب محفوظ لعمر الحمزاوى في " الشحاذ "، تمازج الطول والامتلاء في جسده جعله عملاقاً. لم أعرف من ماضى الرجل، ولا حتى من حاضره شيئاً، سوى أنه يأتى في موعد محدد، وينصرف في موعد محدد، يتسلم مواد الجريدة من مدير التحرير، يراجعها، ويدفع بها إلى سكرتارية التحرير. ثم عرفت أنه تزوج - للمرة الأولى - بعد أن قارب الستين، فاجأ الجميع بنبأ زواجه.

أردف في لهجة معتذرة:

- من الصعب أن أعيش بلا ونس.

لا أعرف إن كان قد أنجب، أم أنه اكتفى بونس الزوجة.

وأذكر أنه كان يترجم - كل يوم - قصة قصيرة من الأدب العالمى، وقدمت له قصة لى، أعجبته فنشرها باعتبارها قصة إفريقية، عالمية، ووجدت في نسبتها إلى العالمية تعويضاً لا بأس به عن إغفال اسم مؤلف القصة.

وفى حواراتنا القليلة، المتباعدة، عانيت ارتباكاً، لا تجاوز فيه الصداقة مجرد التمنى.

كنت أعتز بصداقتى لمحفوظ وتيمور وغراب والبدوى وعبد الحليم عبد الله وباكثير والسباعى والسحار وغيرهم، رغم أنهم - أو غالبيتهم - كانوا يفوقون سيد العقاد في أعمارهم.. لكن سلفية التفكير والالتصاق بالتراث ورفض المعاصرة في الفكر والفن، كانت تمثل حواجز أتردد في القفز فوقها، وأقترب من سيد العقاد مصافحاً.

وحين اقترب سيد العقاد من مكتبى بصالة المساء، واختار كرسياً، وجلس، شملنى ارتباك.

دعوته إلى فنجان قهوة، وعشرات الأسئلة - في الذهن - تطرح نفسها. كنا وحدنا في صالة " المساء ". تكلمنا في العديد من القضايا، بدءاً بكرة القدم - وكان الرجل أهلاوياً متعصباً - وانتهاء بزعامة خروشوف الزاعقة للاتحاد السوفييتى.

ثم سألنى الرجل فجأة:

- هل تريد تحقيقاً صحفياً مثيراً؟

اتجهت إليه باهتمام واضح أغنانى عن السؤال.

قال:

- الليلة، ذكرى الأربعين لوفاة ابنة العقاد.

- هل كان العقاد متزوجاً؟ وهل له ابنة؟

- تذكر حادثة الفتاة التي انتحرت حزناً على وفاة العقاد.. تلك هى ابنته!

انتظرت سيد العقاد في محطة تروللى شارع الألفى. ركبنا الأوتوبيس، ونزلنا بالقرب من سرادق ضخم قبالة بيت مجاور لقهوة عنتر بالعباسية.

دخلنا، وجلسنا. وكان يتناوب تلاوة القرآن الكريم الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وقارئ آخر لا أعرفه- وإن عرفت أنه قارئ الحى، وكان صوته منفراً للغاية.

بطبيعة الحال، جلت بنظرى في الحضور.

لم أكن أعرف غالبيتهم، وإن ميزت عم أحمد طباخ العقاد, وطاهر الجبلاوى، وخليفة التونسى، وعدداً من أصدقاء العقاد ومريديه.

بدأ سيد العقاد حديثه - همساً - في السرادق، وأكمله - متخلياً عن الهمس - في مشوار العودة: الفتاة ثمرة علاقة بين العقاد وإحدى السيدات [قيل إنها تزوجها عرفياً]، وهبها أبوته الاسمية رجل أعمال اقترنت به السيدة. فلما كبرت الفتاة، عرفت من هو والدها الحقيقى، وبدأ ترددها على بيت العقاد الذي تيقن أن الفتاة ابنته، ومن ثم، فقد عاملها معاملة الأبناء: أنفق عليها، وراجع واجباتها المدرسية، وكان دولاب غرفة نومه يضم العديد من كراساتها،

جرى فيها قلمه بتصحيح وملاحظات وعبارات إعجاب وتحية، وكانت الفتاة تناديه أمام الجميع: بابا.

أبطأت الدهشة خطواتى، فتابع سيد العقاد حديثه في ثقة:

- ربما تسألنى: لماذا لم يعترف العقاد في حياته بأبوته للفتاة؟.. الواقع أنه ذكر ذلك في وصية، أودعها لدى السياسى إبراهيم عبد الهادى باشا، وشدد على أن تعلن الوصية بعد وفاته.

- لقد مات.. فأين تلك الوصية؟

- ما أعرفه أن عامر العقاد أغلق الشقة من الداخل، فور وفاة عمه، وأخلاها من كل ما يمكن أن تفيد منه الفتاة في تأكيد أبوة الرجل لها. لما علمت الفتاة بنبأ الوفاة، هرعت باكية، فرفض عامر أن يأذن لها بالدخول، واتهمها - وأمها - بتعمد الإساءة لذكرى الكاتب الراحل. وكان رد الفعل لصدمة الوفاة، وإنكار عامر، أن الفتاة تناولت حبات وفيرة من الأسبرين، لتضيف إلى عشرات الأسئلة التي خلّفها رحيل العقاد، سؤالاً جديداً.

علا صوته، فتصورت أن المارة بدءوا في التلفت:

- المؤكد أن العقاد كان أباً للفتاة المنتحرة. ذلك ما يعرفه جيداً كل الذين أتوا إلى السرادق .. فهل أتوا لتأكيد الإساءة؟

أعدت السؤال:

- أين الوصية؟

- ربما امتنع إبراهيم عبد الهادى عن إذاعتها، حتى لا يشوه ذكرى الرجل.. لكن الجريمة الكاملة أسطورة، وعليك أن تعيد فتح الملفات من جديد!

قلت دون أن أتدبر السؤال:

- لماذا لم تتول بنفسك هذه المهمة؟

قال الرجل في أسى واضح:

- قرأت - بالطبع - عن اتهام عامر العقاد لى بالاستيلاء على شقة العقاد في الإسكندرية، وثبوت براءتى من الاتهام، وأن الشقة لى. ما أكتبه سيبدو جزءاً من حملة التشهير بينى وبينه.

وقررت أن أهمل المسألة حالاً. إذا كانت العلاقة بين الرجلين شابتها خصومة، فلماذا أحول قلمى إلى أداة؟

ثم قرأت - بعد ذلك بسنوات - لخليفة التونسى وأنيس منصور وآخرين، يطرحون القضية من جديد: هل كان العقاد أباً للفتاة المنتحرة؟

- ٤ -

فى يونيو ١٩٧٥، قضيت ما يقرب من الشهر في نواكشوط، ضيفاً على وزارة الإعلام الموريتانية، ضمن وفد إعلامى، تولى تدريب كوادر إذاعية وصحفية من الشباب الموريتانى، وأصدر العدد الأول - بداية لانتظام الصدور - من أول جريدة موريتانية، وهى الشعب.

كتبت - بعد حوالى العام من مغادرتى موريتانيا - قصة الأكسر، عن علاقة حب عفوية، وبسيطة، بين سيدة فرنسية وخبير إعلامى عربى. وإذا بدا الملل شرياناً رئيساً في القصة، فإن الملل - في الحقيقة - كان هو نبض تلك الأيام التي أحاطنا فيها الحكم القائم آنذاك - لأسباب نجلها - بقيود صارمة، هى أقرب إلى تحديد الإقامة..

كنا نغادر قاعات المحاضرات إلى فندق مرحبا، نقضى فيه طيلة يومنا، نتناقش، نتسامر، نتذكر، نبدى ملاحظات، نقتل الوقت - الأدق أن الوقت هو الذي كان يقتلنا - فإذا جاوز الليل منتصفه، سرنا في خطوات متثاقلة إلى فندق البرلمان، نحاول النوم في غرف تعانى الحرارة والرطوبة والرائحة العطنة والحشرات الطائرة والزاحفة. وحين أصر قائد المجموعة - الإذاعى الكبير محمد فتحى - أن نكسر - في إجازة الأحد - تلك الرتابة التي أصبحت إساراً لأيامنا، لحقت بنا سيارة يستقلها أعضاء الحزب الحاكم، قبل أن نغادر نواكشوط في طريقنا إلى الحدود الموريتانية السنغالية.

وعدنا - صاغرين - إلى فندق مرحبا.

توصلنا - بعد مناقشات مستفيضة - إلى وجوب إعلان التمرد. علموا بما كنا ننتويه من طابور خامس دسوه بيننا، فأبلغونا بخطة مضادة هى الترحيل الفورى كأشخاص غير مرغوب فيهم، في حالة إعلان التمرد المرتقب.

احتدم الموقف، وبدا الترحيل واضحاً في الأفق القريب.. لكن تدخل الوساطات الحميدة لسفراء من البلاد التي ينتمى إليها الخبراء - مصر وسوريا والجزائر والعراق -خفف الأزمة إلى حد التلاشى. وكما أحطنا بالملل بلا مناسبة، غادرناه - أو غادرنا - بلا مناسبة كذلك. سار بنا أعضاء الحزب إلى نواذيبو وأكجوجيت، وإلى الحدود التي منعنا من الوصول إليها، وتعرفنا إلى الحركة العمالية الرافضة بشعار محدد، طالعناه في المصانع القليلة التي أتيح لنا زيارتها: لا!.. كبيرة، بالفرنسية والعربية، في الأرض والجدران، وفى الأبواب، بينما الماكينات تنتظر من يديرها!. ودهشنا لاعتراف مدير معمل تقطير المياه - وهو فرنسى - بأن الصدأ الذي ران على المعدات، مبعثه توقف العمل منذ عامين. وقارننا بين الحياة المترفة الناعمة لأعضاء الحزب، يقابلها مجاعة حقيقية يعانيها السواد الأعظم من المواطنين، نتيجة الجفاف الضارى الذي كانت تحياه - آنذاك - مناطق الساحل الإفريقى.. وظواهر أخرى - إيجابية وسلبية - كثيرة.

كذلك، فقد أتيح لنا التعرف إلى المجتمع الموريتانى المثقف - وكنا في عزلة عنه - من خلال حفلات استقبال أقامها وزير الإعلام، وسفراء الأقطار التي ننتمى إليها. وفى هذه الحفلات بدا أنى ألتقط طرف الخيط في تحقيق صحفى عن الصحراء المغربية - أو الغربية -

وإن اتجهت الأحداث - فيما بعد - إلى نتائج تجعل السياسة أقرب إلى ألاعيب الحواة، وتضع المسكين ميكافيلى في موضع الملائكة الأبرار!

وذات صباح، صحبنى محمد ودادى، مدير الإذاعة الموريتانية آنذاك، في سيارته، إلى خيمة في الصحراء، قبالة فيلا أنيقة - والموريتانيون يستقبلون الضيوف في البيوت والفيلات والقصور، لكنهم يفضلون الإقامة في الخيام التي يقيمونها في الخلاء المجاور!- والتقيت بمجموعة من الرجال، ربما يجاوزون العشرة، وإن عرفنى ولد دادى بواحد منهم، تولى وحده الإجابة عن أسئلتى، واكتفى الآخرون بالتأكيد على كلماته بكلمة، أو تسبيلة عين، أو هزة رأس.

من الغريب أن دواعى الاهتمام بقضية الصحراء كانت هى نفسها دواعى الإهمال لها. فأطراف القضية ثلاث دول عربية: المغرب وموريتانيا اللتان تتنازعان ملكية الصحراء، وأنها امتداد طبيعى للتراب الوطنى لكل منهما، والجزائر التي وجدت نفسها طرفاً في النزاع، ربما لأسباب مبدئية، أو لأن التصاقها الحميم بالمشكلة يدفعها إلى وجوب اتخاذ رأى، بالإضافة - طبعاً - إلى أسبانيا التي تخضع الصحراء لسيطرتها الفعلية.

ولأن الحساسيات في عالمنا العربى تفوق الموضوعية، وإيثار السلامة أجدى من التصدى للمشكلات، ارتكازاً إلى المثل العامى الذي يدعو لأن نبتعد عن الشر، ونغنى له، فقد أهملت القضية لأسباب الاهتمام بها.. فالأطراف العربية الثلاثة لها مواقف مختلفة - إن لم تكن

متعارضة - في القضية، فضلاً عن أسبانيا التي تعد في مقدمة الدول الأوروبية مناصرة للحق العربى.

مع ذلك، فإن المسئولية العربية - وحدها - هى التي أنقذت القضية - أو كادت - من الضياع، أو - في الأقل - من التجمد. وبدا الحل النهائى أملاً في الأفق القريب.

كانت قضية الصحراء تنطوى على اختلافات حادة، حتى في التسمية - المغرب تسميها الصحراء المغربية، وموريتانيا تطلق عليها الصحراء الغربية. الأمر نفسه بالنسبة للجزائر، بالإضافة إلى التسمية التقليدية: الصحراء الأسبانية.

وقد تخلت أسبانيا عن قرارها الذي اتخذته في ١٩٥٨ بضم الصحراء إلى التراب الأسبانى، بوصفها مقاطعات أسبانية، بينما أكدت المغرب وجوب عودة الصحراء إلى الوطن الأم. أما موريتانيا، فقد أعلنت - بعد سنوات من الصمت - أن الصحراء جزء من التراب الموريتانى، وأن الصمت الذي التزمت به، حرصاً على عروبة الصحراء في الدرجة الأولى، لا يلغى تبعية الصحراء إلى الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

تضم الصحراء وادى الذهب، والساقية الحمراء، في أقصى الشمال الإفريقى. تحدها من الشمال موريتانيا والمغرب، ومن الشمال الشرقى الجزائر. ويقدر عدد سكان الصحراء بحوالى ٤٨ ألف نسمة - وهو إحصاء تقريبى، لأنه لم يكن قد تم إحصاء رسمى حتى تلك الأيام من عام ١٩٧٥ - ومساحتها ٦٢٦ ألف كيلو متراً، وأكبر مدنها العيون. والرعى هو العمل الأساس

للسكان، فضلاً عن أنها غنية بالفوسفات والتوقعات البترولية، وتصل التقديرات بكمية الفوسفات في الصحراء إلى نحو مليار و٧٧٠ ألف طن، كلها على نحو سبعة أمتار من سطح الأرض.

وصلت أول قافلة أسبانية إلى منطقة الساقية الحمراء في ١٨٨٠، وفى مدينة العيون على وجه التحديد.. لكن المظهر التجارى ما لبث أن تكشّف عن الأهداف الاستعمارية، عندما أقامت القافلة التجارية ثكنات عسكرية، بداية لاستعمار طويل.

لم يحاول الأسبان التغلغل إلى داخل الصحراء حتى حرب التحرير الأسبانية [١٩٣٦ - ١٩٣٩]. ثم استطاعت القوات الأسبانية أن تفرض احتلالها على كل مناطق الصحراء، وأن تقيم بها وجوداً استعمارياً، لم تقض عليه الثورات المتلاحقة لأهالى الصحراء، والتي كان أخطرها ثورة العناصر العربية في القوات الأسبانية عام ١٩٥٦، غداة إعلان استقلال المغرب. وأسفرت تلك الثورة الدامية عن قتل ما يصل إلى ثلاثمائة من جنود الأسبان.

وفى العاشر من يناير ١٩٥٨، أصدرت الحكومة الأسبانية قراراً بضم الصحراء إلى أسبانيا كولاية لها ممثلوها في البرلمان الأسبانى، مقابلاً لمحاولة فرنسا إقامة جمهورية في جنوب الجزائر للنيل من الثورة الجزائرية، وكبح اندفاعاتها. وفرضت الصحراء نفسها - كمشكلة دولية - في العام نفسه [١٩٥٨] عندما قامت المغرب بوضع قضية الصحراء في جدول أعمال الجمعية

العامة للأمم المتحدة. وفى الفترة ما بين ١٩٦٤ - ١٩٦٦ بحث مجلس الأمن والجمعية العامة قضية الصحراء من جديد، بطلب من موريتانيا والجزائر والمغرب.

أما حرب التحرير، فقد بدأت في يونيو ١٩٧٠، حين وقعت مظاهرات في العيون سقط فيها عدد كبير من الشهداء. ومن يومها، تواصلت المعركة الوطنية المسلحة. وعقب مناقشات الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العامة لقضية الصحراء، تقرر إحالتها إلى محكمة العدل الدولية بلاهاى. وتلا ذلك إنشاء بعثة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق في الصحراء.

توافقت زياراتنا إلى موريتانيا مع جولات بعثة الأمم المتحدة في الدول الثلاث، وفى الصحراء، تستطلع ميدانيا، وتناقش، وتحاول التعرف إلى الصورة الحقيقية للمشكلة.

كانت أسبانيا قد أعلنت - في مفاجأة درامية - استعدادها لإعطاء الصحراء حق تقرير المصير. وتفاوتت ردود الأفعال في دول المنطقة، فوصفت المغرب مبادرة أسبانيا بأنها تهرّب من المسئولية، وبداية لعبة استعمارية جديدة، بينما قالت موريتانيا - على لسان رئيسها - أن القرار يتسم بطابع إيجابى. أما أسبانيا، فقد بدا أنها لا تريد أن تغادر المنطقة قبل أن تحصل على أقصى ما يمكنها من الثروات المعدنية الظاهرة، والمتوقعة، والتي ربما بقيت من أجلها كل تلك السنوات في الصحراء، لكنها - في الوقت نفسه - لا تملك مقاومة المد التحررى ضد الاستعمار، وتخوفها من أية ردود أفعال داخلية، فضلاً عن العلاقة ذات "

الوضع الخاص" بينها وبين الأقطار العربية، وموقعها بين دول العالم الثالث، وظهورها كدولة استعمارية. وكانت الأفكار الأسبانية تتلخص فيما يلي:

- تسلم أسبانيا السلطة في الصحراء إلى لجنة رباعية، تتألف من أسبانيا والمغرب وموريتانيا والجزائر، تحت إشراف الأمم المتحدة.

- ترسل الأمم المتحدة قوات دولية للمرابطة على الحدود.

- يتولى الأمن الداخلي ميليشيا صحراوية تتفق عليها الدول الأربع.

- يبقى الموظفون الأسبان في الإدارة كخبراء تابعين للأمم المتحدة، وتتولى اللجنة الرباعية كل النفقات.

- تحدد الدولة الرباعية موعداً للانتخابات، لاختيار المؤسسات التي تسيّر الدولة الجديدة.

أما رد فعل المغرب، فكان التنديد برغبة أسبانيا في فصل جزء من المغرب، ومحاولة إقامة كيان منفصل في الصحراء، واعتبر ذلك عملاً استعمارياً يوجه ضربة قاصمة، ليس لوحدة المغرب فقط، وإنما لفكرة المغرب العربي، لأنه يزيد في تمزيق المنطقة، بإقامة كيان مصطنع في جزء منها.

لذلك طرح المسئولون المغاربة ضرورة أن تبحث من جديد فكرة المغرب العربي, التي تضم المغرب وتونس والجزائر، وربما ليبيا أيضاً، وأن تتبنى تونس الأمر، باعتبار أنها ليست طرفاً مباشراً، فضلاً عن أنها جزء من فكرة المغرب العربي، وهي على علم تام بكل تفصيلات

المشكلة، وبوسعها - من ثم - أن تصحح الأوضاع مع الجزائر المتحمسة في اتجاه قد يضر بالمغرب العربى، وبالوطن العربى جميعاً.

وبلغت اتهامات المغرب للجزائر، حد اتهام بعض الحركات المسلحة في الصحراء - البوليساريو فيما بعد - بأنها صناعة جزائرية!

والحق أن الصوت العربى الوحيد - عدا أبناء الصحراء أنفسهم - الذي دعا - منذ البداية - إلى وجوب تخلى أسبانيا عن استعمارها للصحراء، وفرض القضية على المجتمع الدولى، وجعلها بنداً أساسياً فيما تتناوله الجمعية العامة ومؤسساتها من مناقشات تستهدف التوصل - سلباً أو إيجاباً - إلى حل.. ذلك الصوت، كان المغرب.

أذكر أنى سألت محمد ودادى:

- لماذا تأخرت موريتانيا - لأعوام - في إعلان وجهة نظرها؟

قال:

- بصراحة، لأن دولة عربية شقيقة - يقصد المغرب - رفضت أن تعترف بمجرد وجودنا كدولة مستقلة ذات سيادة. كنا نعانى أزمة تأكيد الذات أولاً، ولم يكن من المنطقى أن أناقش صحة أبوتى لأبنائى، والغير لا يعترف بأحقيتى في أن أحيا، وأن تكون لى شخصيتى المستقلة.

أضاف ودادى:

- هناك عامل آخر، هو حرصنا الأهم أن تعود الصحراء إلى هويتها العربية، أن تعود جزءاً من الوطن القومى الأم، ثم نبحث - بعد ذلك - في إمكانية ضمها إلى هذا الجزء أو ذاك من الأقطار العربية، أو أن تعلن نفسها دولة مستقلة. لكن المتاهات التي فوجئنا بها، والتي شارك المجتمع الدولى في نسج خيوطها، وحقوق أشقائنا في الصحراء، والمصير المشترك.. ذلك كله فرض علينا أن نتحرك، ونعلن رأينا في القضية بوضوح.

وفى حفل استقبال دعينا إليه، قال لى السفير الجزائرى في نواكشوط:

- ليس للجزائر أية مطالب في الصحراء " الغربية "، لكنها - لأسباب معلنة - تعتبر معنية بقضية الاستعمار في هذه المنطقة.

وأفاض الرجل في وصف المظاهرات التي استقبلت بعثة الأمم المتحدة. كانت تنادى بوحدة التراب الوطنى، ووجوب عودة الجزء المحتل - الساقية الحمراء ووادى الذهب - إلى الوطن الأم، وأن الولاية السابعة امتداد جغرافى وحضارى للصحراء.

وحرص الرجل كذلك على تأكيد القسمات والملامح المتشابهة بين أهالى الصحراء والموريتانيين، وأن عائلات بأكملها تناثر أفرادها في الصحراء، وفى الأقاليم الموريتانية على السواء، فضلاً عن العادات والتقاليد والأزياء التي تشابهت لحد التطابق.

وأكد - في حسم - أن موريتانيا لها كل الحق في اتخاذ الإجراءات المناسبة للحرص على حقوقها " المشروعة " في الصحراء الغربية، التي تعد جزءاً من الوطن الموريتانى.

***

السياسى الراحل محمد حسين هيكل أبدى دهشته لتأثر أحمد لطفى السيد - تأثراً بلغ حد الفجيعة - لوفاة مصطفى كامل، وهو الذي كان يعتبره خصمه السياسى الأول. بل كان يأخذ عليه معايب أخرى تجعل زعامته مشكوكاً فيها، إن لم تكن مرفوضة.

الشعور نفسه هو الذي تملكنى وأنا أقارن بين الاحتضان الجزائرى لجبهة البوليساريو، سعياً وراء تكوين الدولة المستقلة، والإصرار المغربى - بموافقة موريتانية - على أن الصحراء جزء من التراب المغربى.

تلح على الذاكرة تأكيدات السفير الجزائرى في نواكشوط، والمسئولين الموريتانيين، وهؤلاء الذين التقيت بهم على أنهم من أبناء الصحراء، في يونيو ١٩٧٥، بأن الصحراء الغربية - لا المغربية - هى الامتداد الطبيعى لصحراء موريتانيا.. والمسيرة الخضراء، التي وإن لم أشاهدها على الطبيعة، فإن تأثيراتها كانت ملمح الحياة آنذاك، في العاصمة نواكشوط.

ولأن اجتهاداتى السياسية تكتفى بالتعقيب على ما يجرى، فلعلى أكتفى بالسؤال:

السياسة هى فن الممكن، فإلى أى حد يصل هذا الممكن؟

أضيف سؤالاً ثانيا:

ألم يكن في ذلك كله خيط تحقيق صحفى مثير، أفلته - ببساطة - هذا الذي لم يحسن السياحة بعد في بحر الصحافة ؟!

- ٥ -

التقيت به - للمرة الأولى - في رحلة خبراء مركز الإعلام العربى للسكان والتنمية والتعمير إلى العاصمة الموريتانية. تولى خمسة من الصحفيين: سجاد الغازى وعلى الفولى ومحمود سامى وجميل شفيق والزبير سيف الإسلام وكاتب هذه السطور، إعداد الكوادر الموريتانية التي تولت إصدار الشعب، أولى الصحف في تاريخ موريتانيا. وتولى محمد فتحى - بمفرده - مسئولية تدريب الإذاعيين الذين كانوا يتولون بالفعل مسئولية العمل في إذاعة نواكشوط.

كان محمد فتحى أكبرنا سناً، لكنه - بالقطع - كان أكثرنا شباباً. ليس في الأمر مبالغة، أو حتى مجرد مجاملة، لكنه كان كذلك فعلاً.

استضاف الأخوة الموريتانيون أعضاء الوفد في فندق البرلمان الذي يخلو من وسيلة إعاشة حقيقية، في حين اقتصرت الإقامة في فندق مرحبا الذي يقترب - إلى حد - من معنى الفندق. ودهشنا للمفاضلة السخيفة: ما معنى أن يتمايز عضو وفد ضيف عن بقية الأعضاء؟

قال الأخ ودادى: إن التمايز الذي نتصوره - هل كان مجرد تصور ؟! - مرده رئاسة الزبير سيف الإسلام للوفد.

ورفضنا، ورفض الزبير كذلك. إذا كانت المفاضلة مطلوبة، فإن شيخنا محمد فتحى أولى بها.

لكن الرجل اعتذر في دهشة:

- هل ترون أنى أستحق رعاية خاصة؟

- لأنك كبيرنا.

- أنا أحيا بمشاعر ابن العشرين.

- إذن فلعلو مقامك.

- لرأى الموريتانيين وجاهته إذن، الزبير سيف الإسلام هو رئيس الوفد!

ووافق الرجل أخيراً، بعد أن طرحنا الأمر عليه بهذه الصورة: إذا لم توافق على الإقامة بفندق مرحبا، فستظل الغرفة خالية.. والأجدر أن يفيد أحدنا من الإقامة بها، فيتاح لنا قضاء أوقات فراغنا في ضيافته!

ولعلى كنت أكثر أعضاء الوفد إفادة من تلك الأيام التي ألقينا فيها على محمد فتحى مسئولية الأبوة. جسد لى" المثل الأعلى". لم تعد الكلمة مطلقة المعنى، وإنما تحددت في القدوة والإقناع والسيطرة والمحبة والتسامح. وكنت أتعمد الاستيقاظ مبكراً في الأيام التي تخلو فيها فترة الصباح من المحاضرات، ألقاه في مرحبا وقد انتهى من طعام الإفطار، وبدأ في قراءة الصحف.

نغادر الفندق، نتسكع في الشوارع بلا هدف.

المدينة تنضو عنها ثياب النوم. تمتد جولتنا إلى السوق الكبير، نشاهد ونتأمل ونسأل ونفاصل ونشترى ونتعرف - هذا هو الأهم - إلى ذلك البعد المهم في المجتمع الموريتانى: الحياة

اليومية في سوق، التعبير الأبلغ عن العادات والتقاليد والقيم والموروثات عموماً. تنأى عن الصنعة والتكلف والرتوش، تواجهك بفطرتك وبساطتها و" عبلها".

كان محمد فتحى بارعاً في فصاله، لم يكن يستهدف إنقاص الثمن بضع أوقيات[الأوقية: عملة موريتانية] وإنما كان يعنيه النقاش في ذاته، يأخذ ويعطى، يلاحظ المفردات، وطريقة الحوار، وأسلوب الفصال، والترغيب، والرفض، ومتى يهمس الصوت، ومتى يعلو. وكان محمد فتحى يدعونى إلى المشاركة في الحوار أحياناً، فأخشى - بالقياس إلى بديهته المتفوقة - أن تخذلنى بديهتى.

لم أكن أعرف للرياضة معنى، فأنا أصحو لأرتدى ثيابى، وأعد نفسى للعمل الذي يشغل مساحة النهار كلها. فإذا أتى الليل خلوت إلى كتاب، لا أنام قبل أن أتمه.. وهكذا تنقضى الأيام!

جاوز الرجل إبداء الدهشة:

- لماذا لا نعدو ليلاً في الشوارع الخالية بموازاة المحيط؟

وسار بالفعل خطوات سريعة، هى أقرب إلى الهرولة، وسرنا وراءه: واحد اتنين.. واحد اتنين.. حتى أدركنا التعب، فطلبنا العودة إلى الفندق.. لكن الرجل واصل الهرولة دون أن تشغله توسلاتنا.

***

لم يكن حوارنا ينقطع إلا ليتصل، نحن نتحدث في كل ما نتذكره، أو تراه عيوننا. تتنوع الموضوعات بالتداعى. كل قضية تسلم طرف خيطها - بمجرد الإلمام - لقضية أخرى. ولم أعد أتصور أن صحبتنا مرتهنة بتلك الأيام التي ندرب فيها كوادر الإعلاميين الموريتانيين[ولد بالمنصورة في السابع والعشرين من يناير عام ١٩١٠، وتوفى في الثانى من ديسمبر ١٩٨٦، أى ستة وسبعين عاماً. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة عام ١٩٣٢، وعين - بعد عامين - في الإذاعة المصرية، وأفلح - في مدى قصير نسبياً - أن يحقق لنفسه مكانة متفوقة، حتى سمى كروان الإذاعة لجمال صوته، وتميزه في الأداء والتنغيم، وثمة من اعتبره مدرسة في الفن الإذاعى. أشهر من قدم حفلات أم كلثوم، وهو الذي أطلق عليها لقب" كوكب الشرق". منحه الملك فاروق رتبة البكوية، ثم نقل - في أعوام الثورة الأولى - إلى وزارة التعليم العالى.

قرأت في كتاب لويس عوض " أوراق العمر " عن أسباب خلاف محمد فتحى مع قيادات الثورة: أمره أنور السادات أن يفصل شبكات الإذاعة في أثناء إلقاء اللواء محمد نجيب خطاب له في أسيوط، بحيث لا يصل صوته خارج الاجتماع. ولأن محمد فتحى كان يعرف الخلاف بين محمد نجيب من ناحية، وأعضاء مجلس قيادة الثورة من ناحية ثانية، ولأن محمد نجيب لم يكن قد عزل من منصبه كرئيس للجمهورية، فقد كان من الطبيعى أن يخشى محمد فتحى على نفسه من مغبة تنفيذ ذلك الأمر. وتقرر - بعدها - نقل محمد فتحى إلى وزارة التعليم

- أوراق العمر ٣٩٥، ٣٩٦ - عين محمد فتحى مستشاراً ثقافياً، ورئيساً للبعثة التعليمية في بون، ثم في لندن، حتى أحيل إلى المعاش، فعاد إلى مصر. وإذا كانت الدولة قد أحالت محمد فتحى إلى المعاش، فإنه ظل يعمل في التأليف والترجمة وتدريس الإعلام في أقطار الوطن العربى، والتعاون مع هيئات عربية ودولية، حتى أدركه الموت]

وليلة، كنا نستمتع بنسائم المحيط التي تناقض شواظ النهار اللافحة، وصوت أم كلثوم يغنى في إذاعة صوت العرب: غلبت أصالح في روحى..

قال لى محمد فتحى:

- جعلتنى أم كلثوم - ذات يوم - خاطبة!

وروى لى بأسلوبه" التحدثى" كيف تولى مهمة تعريف أم كلثوم والموسيقار محمود الشريف كل منهما بالآخر، ثم ذهاب الشريف إلى بيت أم كلثوم، ليقدم لنا أغنية من تلحينه، وبدلاً من أن تغنى أم كلثوم اللحن، تزوجت من الملحن نفسه!..

حكاية تنبض بالتفصيلات الطريفة، والمذهلة، والمحيرة، شدّت انتباهى إلى مطلع الفجر.

لم يكن في زواج أم كلثوم والشريف ما يثير، فقد نشرته الصحف. الإثارة كانت في ظروف الزواج نفسه، بواعثه، وتطوراته، والفشل الذي انتهى إليه. وكان في ذلك كله مائدة صحفية حافلة بالدسم!

عدت إلى القاهرة والسؤال يشغلنى: هل أعتبر ما رواه لى محمد فتحى" خبطة" صحفية، فأنشرها ؟ أو أنه مجرد ذكريات صديق ينبغى ألا تجاوز صفتها؟

أوافقك على أنه كان من المفروض أن أتعرف إلى الرأى الصواب من محمد فتحى نفسه. أحادثه بالتليفون، فأنشر ما رواه أو لا أنشره.. لكن الأيام تواصلت، والأمنية ظلت قائمة.

التقيت محمد فتحى - فيما بعد - مرات ومرات، اتجهت أحاديثنا - كالعادة - إلى شرق وغرب. وكنت أنسى السؤال القديم تماماً، لا أتذكره إلا بعد أن يمضى الرجل، وأصيح - في أسف - متذكراً: ياه.. نسيت أن أسأله!

وكان لابد أن يحدث ما حدث: نشر محمد فتحى مذكراته، وأتاح رحيل أم كلثوم لمحمود الشريف أن يروى القصة من بداياتها، وأفاضت الصحف في استعادة القصة القديمة، ولم يعد من المقبول - بالطبع - إلقاء السؤال. تجاوزه الآخرون، فأجابوا، وتناولوا" الحكاية" بكل تفصيلاتها، وتحسّرت على صيد ثمين، أفلتته يد صياد غشيم!

- ٦ -

فاطمة رشدى ..

الاسم رافقنى منذ الطفولة.

كان العزيمة جسر لقائنا الأول في سينما الأنفوشى. لم أعد أذكر منه - بتوالى السنين- إلاّ جلسة الشابين في سلم البيت وهما يتبادلان عبارات الحب. عرفت - فيما بعد - أن الشاب هو حسين صدقى. أتيح لى أن أشاهد كل أفلامه تقريباً - شريط حياته، بدءاً بالعزيمة، وانتهاء بالمسجد الذي بناه في أخريات أيامها، يوضح أن الرجل كان يشغله دور المصلح الاجتماعى أضعاف انشغاله بفن السينما في ضوء المفهوم السائد آنذاك، بدت أفلامه فناً مغايراً لأفلام الاستعراضات التي تبارى في تقديمها أنور وجدى وليلى مراد ومحمد فوزى وتحية كاريوكا ونعيمة عاكف وسامية جمال، والجوقة التي يصعب تعويضها: شرفنطح وحسن فائق وحسن كامل وعبد الفتاح القصرى ومارى منيب وفردوس محمد وزينات صدقى وغيرهم. الأغنيات والرقصات والقصة البسيطة - وربما التافهة - يقابلها جدية والتزام وقصة تعانق المحتوى الاجتماعى في صداقة حميمة. حتى أفلامه التي خفت فيها صوت القضايا الاجتماعية الملحّة، حرصت على تأكيد المضمون الأخلاقى مثل شاطئ الغرام، فيلمه الأشهر أمام ليلى مراد.

العزيمة هو العمل الفنى الوحيد الذي شاهدته لفاطمة رشدى. مع ذلك، فقد أتاحت لى الظروف أن ألتقى بها كثيراً: في قصة سعد مكاوى شهيرة التي تروى علاقتها العاطفية بتاجر

مجوهرات يهودى شهير، في الفيلم المأخوذ عن القصة، في أحاديث يحيى حقي المتناثرة بما تحياه من ظروف، روتها له في مكتبه بدار الكتب بباب الخلق، في دار الأوبرا - قبل أن تصبح أثراً - وهى تتابع - بنظرة منتقدة - فقرات الاحتفال بيوم المسرح العالمى، في مقهى الكورسال وهى تتبادل شرب القهوة والسيجارة في استغراق عميق.

كتّابى مصر جعل الفلاشات المتباعدة ضوءاً مقيماً. بدت فاطمة رشدى ظاهرة اجتماعية، بالإضافة إلى وضعها الفنى المتميز: خروجها عن مألوف العصر في حياتها العامة والخاصة، إقدامها على حرق جميع نسخ فيلمها تحت سماء مصر [١٩٢٨] لأنه كان في حاجة إلى تعديلات كثيرة، بينما فيلم فاجعة فوق الهرم الذي قامت ببطولته أمام بدر لاما، قد حقق - في الفترة ذاتها - سقوطاً شنيعاً. شراسة العلاقة بينها وبين أستاذها وزميلها عزيز عيد، حتى أنها تلح في أن يتحدد دوره في العزيمة حوذياً لعربة حنطور، علاقاتها المشبوهة - والغريبة - ببنات جنسها، صعودها إلى قمة المجتمع وهبوطها إلى السفح.. توارت شخصيتها الفنية في ظل شخصية اجتماعية عملاقة، تعانى نقائص ونقائض، لكن وجودها الشخصى يبدو واضحاً، بل زاعقاً.

كانت الحياة المناقضة لمألوف عصرها تشغلنى بالفعل، حين التقيت بفاطمة رشدى في مكتبى، عشرات الخواطر والأسئلة انثالت إلى ذهنى، وأنا أحدّق - هأنذا أخيراً أفعل ذلك -

في الوجه المغضن، والشفة المتدلّية، والأسنان الفلجاء، والإهمال الواضح في استعمال الماكياج، والفستان الكلشنكان.

لم أكن المقصود بالزيارة، ولم يكن زميلاى في المكتب - كمال الجويلى وعبد الحميد عبد النبي - مقصودين كذلك بالزيارة. جاءت إلى الجريدة - حسب روايتها - لأنها أقرب إلى قهوة الكورسال، طلبت من موظف الاستعلامات أن يصعد بها إلى أحد المحررين، أشار إلى غرفتنا التي كانت الغرفة الوحيدة في المساء، تليها صالة واسعة تضم كل المحررين!

لم نفكر في سؤالها عن بواعث الزيارة. شغلنا الترحيب بزيارتها، وعشرات الأسئلة التي تبارينا في إلقائها، نستعيد - من خلالها - ذكريات العصر الباكرة، ونتعرف إلى الصورة البانورامية لفترة ما في حياة المجتمع المصرى، من خلال أحد أبرز نجومه.

ثم بدا السؤال عن بواعث الزيارة مطلوباً.

قالت إنها تعد لكتابة مذكراتها، ولأنها - بالكاد - تقرأ وتكتب، فإنها تطلب محرراً يتولى التسجيل، فالكتابة!

سألتها بلا تدبّر:

- هل تعتزمين رواية كل شيء؟

- طبعاً.

- حتى ما يراه الناس قسوة منك على غير موعد؟

قالت ضاحكة:

- سأتحدث عما تسميه قسوة.

- وحبك للبنات؟

فاجأتنى بالسؤال:

- وأنت.. ألا تحب البنات؟

وأسندت يدها إلى خصرها:

- ماذا لو أحبت المرأة بنات جنسها ؟.. عموماً، سأروى ذلك كله في مذكراتى.

ناقشنا العديد من الأسماء. وتمنيت - بينى وبين نفسى - أن تخصنى المرأة بكتابة مذكراتها، واستمعت إلى الجويلى وعبد النبى يزكيانى، واستمعت إلى المرأة توافق، وبدا كل شيء سهلاً، وتأكدت - حالاً - أنى سأكتب هذه المذكرات.

قالت فاطمة رشدى:

- يبقى أن أحدد شروطى للنشر.

أضافت دون أن تعبأ بنظرتى الداهشة:

- النشر تتولاه دار كبرى.. الأجر الذي أتقاضاه لا يقل عن ألف جنيه.. عملية الطباعة يجب أن تكون في أعلى مستوياتها.

قلت:

- هذه شروطك للناشر.. مهمتى تقتصر على كتابة المذكرات.

هزت رأسها في حسم:

- من يكتب المذكرات يتكفل بنشرها، وبالجنيهات الألف!

ومات المشروع جنيناً قبل أن يستكمل ملامحه.

***

مضت أعوام.

نظرت بتلقائية إلى المقعد المجاور لى في الطائرة المتجهة إلى الأردن. فوجئت بفاطمة رشدى. لم يعد من ملامح الماضى إلا ذبالة أوشكت أن تنطفئ. بذلت جهداً في تذكيرها بنفسى: المساء، مشروع المذكرات، قهوة الكورسال..

تظاهرت بأنها تذكرت، فلم يبد ذلك - في الحقيقة - عليها.

سألتها عن المذكرات: هل صدرت في ضوء الشرط الذي وضعته؟

قالت في أسى:

- لا!

جرت بإصبعين على جانبى فمها، وأضافت:

- لهذا وافقت على عرض من إذاعة إسرائيل، بتقديم المذكرات - درامياً - لقاء مكافأة طيبة!

- لماذا لم تحاولى تقديمها في مصر؟

- الأجر لا يروقنى.. أنا في حاجة إلى نقود.

- ألا تعطيك الدولة معاشا؟

- مائة جنيه وفيلا مجانية في السويس.

- أتصور أن ذلك يكفى سيدة وحيدة.

- من حقى أن أحيا في المستوى الأعلى.. أنا فاطمة رشدى!

***

قرأت - فيما بعد - لأستاذنا على الراعى، عن الظروف المأساوية التي لازمت وفاة فاطمة رشدى:" دفنت في مقابر الصدقة، لشدة عارنا جميعاً، كأنما هى متشردة، مجهولة الاسم، غير معروفة العنوان، أو نشالة، أو منحرفة تخلى عنها أهلها" (الأهرام ١٩٩٦/٣/٣)

فى أواخر الستينيات، كنت دائم التردد على دار الكتب القديمة بباب الخلق. أصل في حوالى العاشرة صباحاً، وأنصرف في الثانية بعد الظهر، مع رئيس إدارة التراث - آنذاك - الصديق فهيم شلتوت. حسبنى رجال الأمن موظفاً في الدار، فأهملوا مطالبتى بإثبات الشخصية.

كانت مصر - إلى أقصى امتداد الدلالات - هى شاغل اهتماماتى. حتى روايتى الأسوار جاوزت اللحظة إلى اتصال التاريخ المصرى، وحرصت على أن تكون الصفة المرادفة لاسم الرواية: لحظات مصرية.

كان فهيم شلتوت يهبنى كل عونه، دلنى على المصادر والمراجع، ويسر لى الحصول عليها- هى مسألة يعلم المترددون على دار الكتب كم هى شاقة وسخيفة!- وأتاح لى جو الاطلاع، وأن أحصل على ما أردت في صورته الكاملة. تذكرت عونه الوافر، وأنا أقرأ إشارة يحيى حقي - في حوار صحفى - إلى الجزر التي اكتشفتها في تاريخنا الأدبى!

طالت بى القراءة يوماً، فاستأذن فهيم شلتوت في الانصراف، بعد أن أوصى أحد مساعديه أن ينتظرنى حتى أفرغ مما أريد، ليغلق - بعد انصرافى - إدارة التراث.

غادرت المبنى عقب أذان العصر. غبطتى بالبطاقات التي ملأتها، تساوى - وربما تفوق - إحساس التعب الذي شمل جسدى.

سرت مدفوعاً بحماسة طارئة، من شارع محمد على حتى ميدان العتبة. ثم اتجهت - بعفوية - إلى محطة الترولى. كان التعب قد شمنى تماماً، فلم يعد بوسعى أن أُضيف خطوة تالية، يسّر لى الوقت الذي يفصل بين ذروتى الزحام في الظهيرة والمساء - كل الأوقات في القاهرة الآن ذروة! - أن أجد كرسياً خالياً. جلست، ونظرت إلى الجالس جوارى.

أعدت النظر، وقلت دون تدبر:

- الأستاذ محمد القصبجى؟

مال ناحيتى بتأمل صامت. رفع النظارة الطبية بسبابته إلى أعلى، وحدق قليلاً، ثم قال في صوته الهامس:

- نعم.

ولأن المسافة قصيرة من العتبة حتى نهاية شارع الألفى، بالقرب من دار الجمهورية، فقد حاولت أن أنكشه لأحصل على موعد أجرى فيه حواراً ل- " المساء ". في بالى ما كتبه يحيى حقي: إنه ملحن في يده مسطرة وبرجل ومثلث، يعشق الشكل المتماسك، الواضح الخطوط، الحسن التركيب، ألحانه أقرب إلى فن المعمار، وعليها انعقدت الآمال في تجديد اللحن الشرقى.

لكن الترولى جاوز محطة الألفى، ومحطات أخرى تالية، ونزل القصبجى في محطة البالون، وبقيت في مقعدى، أتأمل، وأنتظر اكتمال دورة الترولى من جديد، لأنزل في شارع الألفى.

ربما كان الرجل - في اللحظة التي التصق فيها كتفانا - على تهيؤ لاستعادة الذكريات، والتحدث، ذلك ما نشعر به - أحياناً - فنتحدث إلى الآخرين بما لم يعتادوا منا التحدث فيه، وبالإفاضة، أو الثرثرة، التي تخالف مألوف الطبع. فإذا تنبهنا، بادرنا إلى الاعتذار - بأسف - عن رغبتنا الطارئة في الفضفضة.

تحدث القصبجى طويلاً، وكثيراً. تناول شخصيات وأحداث ومواقف، وضعنى في قلب الحياة الموسيقية، تلك التي لم تزد صلتى بها - يوماً - عن محاولة الاستماع، فالتذوق. تعرفت - بتوجيهات طيبة من يحيى حقي، وبمتابعة مثابرة لأحاديث سندباد عصرنا حسين فوزى في البرنامج الثقافى - إلى كلاسيكيات الموسيقا الغربية: الكونشرتو والسيمفونية والأوبرا والأوبريت. لم أرفضها، ولعلى أفلحت في تذوقها، وإن لم تهبنى التأثير نفسه الذي تهبنى إياه موسيقانا الشرقية. الربع تون، مهما تتباين الآراء في تأثيره - بالسلب والإيجاب - يسرى في داخلى بمشاعر التطريب، هزة الرأس، وخفقة القلب، والدندنة، والنشوة. أتأمل رأى نجيب محفوظ بأن الاستماع إلى المسرحية أفضل من مشاهدتها، اختلاف المسرحية عن الرواية ليس في مجرد اصطناعها للحوار أداة أساسية لتصاعد الأحداث، وإنما في الأداء التمثيلى، وفنية الإخراج، فضلاً عن التجاوب المطلوب بين الممثل والجمهور. أفضّل سماع اللحن - أغنية أو مقطوعة موسيقية - وأنا مغمض العينين، أترك القياد - في داخلى - لمشاعر ورؤى وانطلاقات لا تحد، أناقش الكلمات - في المرة الأولى - وما تعبر عنه، ثم أسلم النفس طائعاً في المرات التالية، قصداً أو مصادفة،

لتيمات اللحن، فأقبله - أو أرفضه - من خلال إجادته تحريك ذلك الشيء الذي يصعب أن أسميه داخل النفس، أو لعله النفس ذاتها. أعجب لمن يرفضون فايزة أحمد، لا لأن صوتها ردىء، فهم يؤكدون تميزه وامتيازه، وإنما لأن وجهها ليس " فوتوجنيك "، يسمعون بأعينهم. أتذكر قول والدة الإمام مالك: " إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه". تلك - في رأيي - بعض العادات السيئة في مجتمعنا المصرى. ترفع رأسك عفواً في قاعة المحاضرات، أو صحن المسجد، فينبهك الجالس وراءك: اخفض رأسك، فإنى أريد أن أستمع جيداً!. كأنه وضع حاسة السمع في عينيه.

لعل الظاهرة تنتسب إلى المشاهدة التي تغلب - في حياتنا - على بقية الحواس. تتردد في دفع عشرات القروش في رواية، وندفع - في رضى - بضعة جنيهات عندما نشاهد الفيلم المأخوذ عن الرواية نفسها. النقاد يكتبون عن الأعمال الأدبية من خلال مشاهدتهم للأعمال الدرامية المأخوذة عنها. حتى أنيس منصور - الذي يعد قارئاً متفوقاً - ناقش رواية نجيب محفوظ خان الخليلى من خلال إعدادها المسرحى!

هل استطردت كثيراً؟

ربما، لكن اللقاء المفاجئ بمحمد القصبجى وضعنى - فجأة - في قلب الحياة الموسيقية، ولى فيها - مع أنها ليست في إطار اهتماماتى المباشرة - أفكار وآراء. حاولت ألا يكون الحوار

من طرف واحد، أن أسأل، فيجيب الرجل، أناقش، فيوضح ما غمض. أقرأ - في كلماته - سطور موضوعات كنت أكتفى بتصفح عنواناتها ..

وعلى الرغم من أنى كنت أفطن إلى دور القصبجى في دنيا التلحين - أذكّرك بكلمات يحيى حقي - فإنى لم أحاول تقدير هذا الدور جيداً، أو وضع القصبجى في موضعه بين الرواد من ملحنينا، ربما لأن صورته الوحيدة التي تعرف إليه فيها أبناء جيلى، منذ شاهدوا صوره في الصحف، ثم في التليفزيون لما بث إرساله، إنه عازف عود بارع، يجلس خلف أم كلثوم في حفلها الغنائى، في الخميس الأول من كل شهر[تأكد هذا الدور - فيما بعد - عندما حرصت أم كلثوم على أن تترك مقعد القصبجى - بعد رحيله - خالياً، تقديراً منها لدوره، وأنه من الصعب أن يجلس على المقعد عازف آخر].. لكن القصبجى أتاح لى - في نبرة خفيضة، تنبض بالثقة، وبالتواضع أيضاً - أن أتعرف إلى حقيقة دوره في حياتنا الموسيقية، عن ريادته الفعلية. إنه هو الرائد والمعلم لجيل من الموسيقيين، حاولوا الإضافة والتطوير والإفادة من السمات والفنيات الغربية. وجد الجيل التالى - والأجيال التالية - الطريق ممهدة بجهده، وإدخاله الهارمونى في الأغنية العربية، كما يتبدى في أغنيات فيلم نشيد الأمل: منّيت شبابى، يا مجد، يا اللى صنعت الجميل.. والجمل الموسيقية المتفردة التي أضافها إلى الأغنية العربية بعامة[أعاد أداء تيمة يا طيور التي قدمتها أسمهان في أغنيتها الشهيرة، باعتبار أن ذلك حدث في

الأغنية العربية، وتحدث عن أغنية " إن كنت أسامح " التي لحنها لأم كلثوم، اعتبرت نقلة مهمة للأغنية العربية] وتطويره للعديد من النظريات الموسيقية.

سألت القصبجى:

- لماذا لم تعد تلحن لأم كلثوم؟

- لأسباب محددة.. قد أتناولها في مذكراتى.

هل توقف القصبجى عن التلحين لأم كلثوم لأنها ابتعدت - كما تقول الأمريكية شريفة زهو - عن ألحانه في أثناء الفترة التي ذاعت فيها شهرة أسمهان، وأن القصبجى تأثر بموت أسمهان؟ أو أن الرجل توقف عن تقديم ألحانه لأم كلثوم، نتيجة رفضها غير المبرر - في تقديره - لألحانه الأخيرة؟ أو أن اختيار أم كلثوم للسنباطى ملحناً وحيداً لها، بعد أن كانت أغنية هوه صحيح الهوى غلاب للشيخ زكريا أحمد، هى آخر ما قدمه من ألحان سواه.. هذا الاختيار كان باعثاً لأن يدخل القصبجى محارة الصمت[من المدهش أن هذا الصمت كان واضحاً، حتى في جلسته التي كان يعزف فيها بعوده لأم كلثوم].

ما حدث، أن القصبجى امتنع عن التلحين، واكتفى بالعزف على العود، حتى نسى البعض - وأنا منهم - دوره الريادى، وتصور أنه مجرد عازف في فرقة أم كلثوم الموسيقية!

أظن أن جلسة القصبجى وراء أم كلثوم حيرت الكثيرين، وأثارت فضولهم ودهشتهم. فهو يعزف ما قد يستطيع متوسطو الموهبة أن يقدموه. هل أحب أم كلثوم، فاكتفى بالجلوس

عازفاً في فرقتها الموسيقية؟ أو أن موهبته التلحينية عانت الصمت المفاجئ، كما حدث - ويحدث - للكثير من المبدعين، فقنع من الموسيقا بالعزف؟

أياً يكن الأمر، فقد ترك القصبجى موضعه في مقدمة الموسيقيين، ليجلس وراء مطربته، أو محبوبته!

***

كان القصبجى - كما قلت لك - هادئ النفس، رائقاً . وكان يروى ويجيب ويوضح برغبة حقيقية في ذلك كله . وأفادنى كثيراً . تعرفت إلى حلقات السلسلة، منذ الرعيل الأول : الحامولى وعثمان والمنيلاوى وحلمى وداود حسنى، وانتهاء بالموجى والطويل وبليغ، مروراً بالقصبجى نفسه وزكريا وعبد الوهاب والسنباطى والشريف وعشرات غيرهم . دلنى على الإضافة التي أتيح لكل منهم أن يضعها في عمارة الموسيقا العربية المعاصرة، أو أنه قد ارتكز - بدعوى التطوير - إلى الموسيقا الغربية، أو أنه اتبع السلفية، أو جارى المألوف فلم يضف شيئاً . وصارحنى الرجل بأنه يريد أن يضمّن تلك الآراء ذكرياته التي ينوى تسجيلها، وإن كان يشغله البحث عمن يتولى الكتابة ..

أظنك خمّنت ما حدث ؟.. نعم، فقد رحبت - حالاً- بأن أكون ذلك الذي شغل القصبجى نفسه بالبحث عنه، وأعطيته عنوانى، وأعطانى عنوانه، ونزل في محطته، وتركنى في الترولى، أستعيد وأستشرف وأتصور التفصيلات وأحلم ..

عدت إلى الجريدة، وقد شملتنى حماسة غير عادية . أردت أن أشير إلى لقاء القصبجى، فلم أجد ما يستحق الإشارة سوى أنه كلفنى بكتابة مذكراته، لكنه أوصانى بألاّ أنشر شيئاًَ قبل أن يعرض علىّ المذكرات، ويناقش استعدادى لكتابتها، فماذا أفعل ؟.. أهملت ما جرى في لقائنا، واكتفيت بالاحتجاج - ضد من ؟ - على أنى رأيت الفنان الكبير محمد القصبجى - هذا كل ما همنى من النشر !- يركب الدرجة الثانية في الترولل..

نشر الخبر، وقامت الدنيا ولم تقعد. أقامها الرجل الطيب الهامس الودود، بدا لى الأمر مفاجأة مذهلة.

قال لى الزميل عبد الصبور قابيل - وكان مندوباً للجريدة في وزارة الداخلية - :

- حاول أن تتصل بالرجل فوراً.. رفع شكواه إلى أعلى السلطات!

قلت في استغراب حقيقى:

- لكننى رويت ما شاهدته بالفعل.

- ليس كل ما نعرفه يصلح للنشر.

- كنت أدافع عن حقه في المظهر الاجتماعى الطيب.

- أنت مثل الدب الذي أراد أن ينقذ صاحبه من سخف ذبابة!

بدت غضبة القصبجى شاغلاً لكل الزملاء، تصورت أنه قد جعل غضبته حديث القاهرة، وذهبت إليه - في موعد حدده هو - وقد خلت نفسى من كل أثر لمرارة أحدثتها غضبته التي

هددت وتوعدت وأنذرت بضرورة ذهابى في الموعد المحدد. قلّبت الأمر، فعجبت لتسرعى الذي تناول - بخفة لا أحسد عليها! - حياة الرجل الشخصية. تفهمت البواعث، وخلت النفس إلاّ من مشاعر الإدانة للذات.

حملت العنوان، ونزلت في محطة عمر أفندى بشارع عبد العزيز. سألت صاحب الكشك المواجه لمكتبة الخانجى. أشار إلى الشارع الخلفى لمبنى عمر أفندى. تأكدت من اسم الشارع ورقم البيت.

صعدت إلى الدور الأول.

ضغطت على الجرس.

فتح لى محمد القصبجى.

أحسست بتميز المكان بمجرد أن فتح لى الباب. ثمة العديد من الأجراس تتصاعد أصواتها من داخل الشقة، كأنها ترحب بالقادمين، أو لعلها تنبه صاحب الشقة إذا فُتح الباب بيد مجهولة، وطالعتنى في الصالة الواسعة، وفى الحجرات التي تكفى واحدة لشقة من بيوت أيامنا الحالية، مجموعات - متنافرة - من الأدوات الفنية والمنزلية وآلات الطرب والسماع. لاحظت أنه توجد في كل حجرة مجموعات من الأجراس واللمبات الكهربائية وساعات الحائط والمنبهات وآلات التليفون والسماعات والفوتوغرافات وأجهزة الراديو والنظارات المكبرة وجهزة البيك

آب والآلات الموسيقية، بالإضافة إلى العشرات من الأدوية والعقاقير والروائح العطرية، كأنى في واحد من تلك الدكاكين التي تعلن لافتاتها - باعتزاز - أنها تحوى ألف صنف!

فاجأنى الرجل - أعترف - بوجه خلا من أى أثر لانفعال، هى هى الملامح البسيطة الوادعة الطيبة. لم يناقش دهشتى لـ- " الجو " الذي يصعب أن تصادفه في شقة، وظل على صمته وأنا أجيل النظر في كل ما حولى، وأشار إلى مقعد في غرفة واسعة - شأنها مثل بقية الغرف - فجلست.

تحدثنا في مسائل شتى، حتى فرض صمت الانتهاء ضرورة أن يحدثنى الرجل فيما قدمت من أجله..

قادنى الرجل إلى دولاب كبير في غرفة خالية من الأثاث - كانت الشقة عموماً، ورغم اتساعها، خالية إلاّ من أثاث قليل - وفتح ضلفته على كومات من الصحف، وقال في لهجة حيادية :

- لو أنك ألجمت قلمك قليلاً، كنت سأعهد إليك بهذه الصحف التي تروى تاريخ الموسيقا منذ بدايات القرن. إن أضفت إليها ما كنت سأرويه لك من ذكرياتى الشخصية، فلابد أن ذلك سيعد مكسباً كبيراً لصحفى في مقتبل حياته العملية..

وشاب صوته رنة أسى:

- أما وقد كتبت ما كتبت، فإنى سأعهد بالأمر إلى من تعنيه القضايا المهمة، دون التفاهات!

لم أحاول أن أناقش، أو أعترض، أو أبدى رأياً. بدا الرجل محقاً، وصادقاً، في حزنه الهادئ.

ضاعف من ألمى قوله وهو يغتصب ابتسامة على باب الشقة مودعاً:

- زال غضبي بزيارتك. ما أرجوه الآن أن تدقّق في خطواتك الصحفية المقبلة، فيما ينبغى وما لا ينبغى نشره.

***

أفادنى الدرس - فيما بعد - جداً وجيداً، لكن الشعور بالذنب يضايقنى عندما أتذكر أن القصبجى رحل عن حياتنا، دون أن يهبنا ذكرياته، بالصورة التي كان يأملها - ونأملها - لها.

ابن شفيقة.. وبوح الأسرار

فى صيف ١٩٧٠، قررت أن أحقق حلماً طالما تمنيته: أبدأ رحلة في الزمان المصرى، والمكان المصرى. أتعرف إلى ما لم أكن تعرفت إليه من قبل، أجاوز المدينة الساحلية - الإسكندرية - والمدينة العاصمة - القاهرة - إلى مدن وقرى، لم تغادر صورها الخيال الذي يهبه السماع والقراءة والمشاهدة في الأماكن المغلقة.

سافرت إلى الوجه البحرى والصعيد ومدن السواحل والبادية. تفهمت أكثر، نصيحة أستاذنا يحيى حقي بأن الكتابة عن وردة في صورة، تختلف تماماً عما لو كانت الوردة في حديقة. الكاتب - في الحديقة - يلامس الوردة بأصابعه، يتشممها بأنفه، يحتويها بعينيه، يحيا التجربة على الطبيعة.

كان من ثمار الرحلة الطويلة كتابى مصر في قصص كتّابها المعاصرين، وروايتى الأسوار، وبعض القصص القصيرة، من بينها متتابعات لا تعرف الانسجام، نشرتها في الآداب البيروتية. ونصحنى صديقى فاروق منيب - وهو يناقش القصة في البرنامج الثانى بالإذاعة - أن أفيد من " تيمة " القصة في عمل روائى.

اكتفيت من نصيحة فاروق منيب بإهمال نشر القصة في مجموعة، واعتبرت كتابتها - كرواية - مشروعاً مؤجلاً، وظلت - لسنوات - في إطار تلك الصفة، لا تجاوزها، قبل أن تتحول الرواية المشروع إلى رواية بالفعل، هى بوح الأسرار.

***

هذه الصفحات، ربما تجد فيها ما يسمى بقصة القصة، وربما نتعرف - من خلال القصة، وقصة القصة - إلى العمل الفنى: كيف تتشابك جزئياته، وتلتحم، لتصبح - في النهاية - وحدة واحدة، وربما تجد فيها متعة الإثارة التي توحى بها - عادة - الذكريات الشخصية، وربما تصدمك كزوائد قلمية سخيفة.

عموماً، فإنه إذا كان الكاتب قد أعطى لنفسه الحق في أن يكتب بعض الأوراق الخاصة، فإن من حق القارئ أن يقرأ، أو يرفض، ما يشاء.

....

....

....

كل شئ يغلفه هواء راكد: الناس والحيوان والأشياء.

تتأثر خطواتى بما حولى، فتبطئ.

هذه دار العمدة، الدار الوحيدة أمامى التي بنيت بالطوب الأحمر. أنتظر مجيئه في الشرفة التي تطل على ميدان ترابى صغير.

الرجل يخطو إلى الخمسين، تميزه نظارة طبية سميكة، ورأس أشبه بقطن مندوف، وأجوبة تنشد - دائماً - أسئلة جديدة.

أخيراً، يجد الرجل ما يتحدث عنه بإفاضة: السمارة على الحدود بين الشرقية والدقهلية، تتبع الدقهلية، عدا أربعمائة فدان تقع في زمام الشرقية.

ذلك الوضع الغريب يسبب متاعب عديدة.

مثلاً، أول قرية يتبعها الزمام تبعد ١٥ كيلو متراً عن " السمارة "، وهى " حانوت ". ويضطر الفلاح إلى السير قدميه ٣٠ كيلو متراً في الذهاب والعودة، لشراء التقاوى والكيماوى من الجمعية التعاونية في " حانوت " التي يتبعها زمام الشرقية.

يقول لى العمدة: حاولنا أن نضم الفدادين الأربعمائة إلى الدقهلية، لكن التعقيدات الإدارية لا حصر لها. أشرنا إلى خطوة مبدئية تقلل من ضخامة المشكلة: لماذا لا يتعامل فلاحو تلك الأفدنة مع الجمعية التعاونية بالسمارة ؟.. إنها لا تبعد عنهم بأكثر من بضع خطوات. وعلى سبيل المثال، فإن لى ٢٨ فداناً في زمام " حانوت "، وأحصل من " حانوت " على ما تحتاجه من كيماوى وتقاوى.. لكن الجمعية التعاونية بالمنصورة رفضت الاقتراح، وأصرت أن تخدم "السمارة " أرض الدقهلية وحدها!

ليست الجمعية التعاونية هى كل مشكلة الأفدنة الراقدة في حضن زمام الشرقية. إنها - زراعياً - تابعة لمركز كفر صقر بمحافظة الشرقية، والخدمات - نظراً لبعد المسافة - نادرة، أو معدومة. رغم ذلك، فإن كل المعاملات يجب أن تتبع الشرقية!

أسأله:

- هل ترى أن العمدية لاتزال نظاماً صالحاً؟

يضغط بأصابعه على إطار نظارته، ويقلب السؤال في ذهنه لحظات، ثم يقول:

- العمدية - حتى الآن - أصلح للقرية المصرية.. كل المشكلات تجد سبيلها إلى الحل الودى. فإذا تعذر حلها - ونادراً ما يحدث ذلك - حولت إلى الجهات المسئولة.

- والتسلط العائلى؟

- غير موجود هنا.. المودة هى التي تحكم بين الجميع.. لا يمكن أن أفرض رأيى على أحد.

***

السمارة واحدة من قرى الدقهلية. شاهد مولد بيتها الأول معظم العجائز من أبنائها. مساحة مبانيها ٣٠ فداناً، وتعدادها ٧ آلاف نسخة. من أهم مظاهر الخدمات بها جمعية لتحفيظ القرآن، ووحدة بيطرية، وصندوق الخدمة الاجتماعية عانى الإهمال حتى نسيه أهلها، فضلاً عن مدرسة ابتدائية بها ثلاثمائة تلميذ. أما سكانها، فجميعهم ينتمون إلى مناطق الوجه البحرى والصعيد. حتى عائلة العمدة - كما علمت - ليست من السمارة نفسها.

أسأل العمدة :

- هل تم توصيل المياه النقية؟

- طبعاً.. وعندنا " فريجيدير".

ويشير إلى أحد أقاربه ليأتى بكوب من الماء البارد.

- إذن.. تم توصيل الكهرباء؟

- عندى مولّد كهربى خاص.. أما القرية، فقد تلقيت وعداً بأن يصل إليها التيار الكهربائى في القريب.

- والوحدة المجمعة؟

- لدينا وحدة بيطرية. وهناك وحدة مجمعة في " أم الدياب "، وأخرى في " تاج العز ".. وكلتاهما تبعد عن " السمارة " بحوالى ٤ كيلو مترات.

***

القرية مغسولة بالتراب، والحركة - رغم طلوع النهار - قليلة. مبنى الجمعية التعاونية أمامنا يخلو من الزبائن، وعمالها يحدثوننى في الأجور الضئيلة التي يتقاضونها: ماذا تصنع الجنيهات الثلاثة لأسرة من خمسة أفراد؟!

وأسأل عن الجهود التي قام بها الأهالى لتطوير البيئة.

يقول العمدة:

- أهم الإنجازات: ردم الترعة التي كانت تفصل القرية، وتعرّضها للأمراض.. كان ذلك منذ أربع سنوات، وقمنا بشراء قطعة أرض، وعمل " مروى " بدلاً منها لرى الأرض.

- ألم تحققوا خلال السنوات الأربع شيئاً آخر؟

يعلو صوته مؤكداً:

- طبعاً.. الطريق الذي يربطنا بالسنبلاوين ودكرنس يعانى الضيق. انفقنا ٨٠٠ جنيه لتوسيعه. كذلك قمنا بإصلاح الطرق الداخلية بالقرية، وعوّضنا أصحاب البيوت التي تم هدمها.

- إذن .. كيف تتصل القرية بالعالم من حولها؟

يجيب الدسوقى الإمام كاتب الجمعية التعاونية:

- قبل أن يتوسد الأوتوبيس تراب القبر، ربما تعطفت علينا الشركة، فسمحت بتسييره بين القرية وما حولها. تاكسى الأرياف إهانة لكرامة الإنسان. ما معنى أن يحشر ٤٥ شخصاً في عربة خصصت لخمسة أفراد؟ " الطوّاف " انتهى، ونتبادل الرسائل عبر مكتب البريد الأهلى. أما التليفون العمومى والتلغراف ففى قرية " صدفا " التي تبعد عنا حوالى أربعة كيلو مترات..

***

مضت ساعتان، والحديث يدور حول نفسه، ولا جديد.

بدأت أحاديث متناثرة عن الرجل الذي طلبت أن أراه. أعاد الشيوخ - ومن بينهم عمدة السمارة - ذكريات ما قبل عشرين عاماً إلى الأذهان، والشاب يتحدى صاحبه: يعنى عامل ابن شفيقة! (الاسم مستعار) وروى الشبان الذين لم يشهدوا الأحداث بأنفسهم تحذيرات الجدات: ناموا أحسن يجيلكوا ابن شفيقة!

ابن شفيقة !..

الاسم الذي يعرفه معظم أبناء الوجه البحرى، على الرغم من مضى الأعوام: الجريمة والخوف والحكايات الأقرب إلى الأساطير.. وصديقى الذي يصحبنى، يقول في صوت هامس:

- هل تصر على رؤيته؟

أتشاغل - مشفقاً - بالاستماع إلى الأحاديث التي تنسج خيوط قصة غريبة، غامضة، مثيرة، بطلها رجل يثير النطق باسمه مشاعر عديدة في نفوس الجميع.

أخيراً، جاء الرجل، وهمس في أذن العمدة بكلمات.

نزع العمدة نظارته الطبية، ثم أعادها، وتربع في جلسته. بدا أنه يفتش عن الكلمات، ثم قال في لهجة معتذرة:

- ممكن يا أستاذ تتفضل تروح له.. أصله ما رضيش ييجى.

وبلغت الرغبة في التعرف إليه ذروتها، وتعالت صيحات محذّرة، لكن قدمىّ كانتا قد بدأتا السير نحو بيت " ابن شفيقة " كما يسميه أبناء الدلتا، أو المعلم فرج خليل زهران [الإسم مستعار] وهو الاسم الوحيد الذي ينادونه به..

***

كان واقفاً ينتظرنى خارج باب البيت: قامة طويلة، وبشرة سمراء، وثياب بلدية بسيطة.

لم أحاول أن أتبين ملامحه. افتقدت يدى في راحة يده الضخمة. ظل يشد على يدى لدقائق، وكلمات الاعتذار عن رفضه الذهاب إلى بيت العمدة تتسابق على لسانه في لهجة مرحبة، والأسطورة تبهت ظلالها شيئاً فشيئاً، وتلفنا الطبيعة الإنسانية الطيبة.

وجلسنا.

- سأروى لك شيئاً.

- تفضل.

- منذ أعوام، التقيت المطرب عبد الحليم حافظ في بيت خاله الحاج متولى عماشة. أعجب بحكايتى جداً، وعرض أن أسافر إلى القاهرة لتسجيل كل الأحداث، وتقديمها في فيلم سينمائى، مقابل أجر محترم..

ماذا يريد الرجل؟!

نظرت إليه جيداً. العينان الضيقتان تخفيان وراء مظهر السذاجة قدرة على المساومة، وأدركت أن الأمر لن يكون سهلاً.

- لا أريد حكايات.. تكفى الدردشة.

....

- البداية ياعم محمد.

يضغط على جبهته بأصابعه، متذكراً:

- في عام ١٩٤٠، في شهر يونيو على وجه التحديد، كنت في الثامنة عشرة من عمرى، أعمل بالفلاحة، ولا يشغلنى شئ سواها.. حتى حاول العمدة - يوماً - أن يستغلنى، فرفضت. وشى بى إلى المديرية. اعتقلت بتهمة إخفاء سلاح غير مرخص، تنقلت بين معتقلات الطور

وقنا وعيون موسى، وكانت المعاملة قاسية جداً، حتى أن بعض النزلاء كانوا يشعلون النار في أنفسهم..

أخيراً، أفلحت في الهرب.. وكانت البداية..

- والجريمة الأولى؟

- اقترح البعض - يوماً - أن نسرق دكان صفراتة، تاجر البقالة الشهير في السنبلاوين، وقبل أن يحل المساء، كان البوليس قد علم بالخطة، وأعد كميناً.. فلجأنا - في الليلة نفسها - إلى سرقة قصر أحد الأثرياء.

***

هل كان روبين هود - بطل القصة الشهيرة - هو أول من أخذ من الأغنياء، ليعطى الفقراء؟

لا أدرى تماماً، لكن المعنى الطيب الذي يغلّف الجريمة استهوى الكثيرين. السارق - هنا - يتحول إلى بطل، والقاتل يصبح مناضلاً وشهيداً. حتى السفاح محمود أمين سليمان وجد من يقتنع بحكايته: صديقى الأديب الكبير نجيب محفوظ، دافع عن موقفه بحرارة في روايته الجميلة اللص والكلاب، وأدان الزوجة الخائنة، والصديق المضلل، والمجتمع الجبان.

يلتقط فرج خليل زهران طرف الخيط، تهرأ من كثرة الأيدى التي أمسكت به:

- كنت أكره الأغنياء. لهذا اقتصرت سرقاتى على بهائمهم وممتلكاتهم، ولم أسرق فقيراً واحداً. كان يستفزنى أن الرجل يترك الثور يموت دون أن يفكر في توزيع لحمه على الفلاحين،

وكنت أختار زملائى من الذين يحملون السلاح لمجرد " التهويش "، وكنت أمتنع عن تنفيذ "العملية " إن سمعت صوت طفل قبل بدئها.

أعيد التحديق في عينى الرجل: ألا يزال يضرب على وتر الذكاء؟!

- بالمناسبة.. أين زملاؤك؟

- اختفوا.. أو ماتوا.

- ألم تعمل لحساب أحد؟

يبدو عليه تأثر:

- لم أعمل يوماً لحساب مخلوق، وكانت سرقاتى مقصورة على أصحاب الفدادين الستمائة، وما فوقها.

***

روى لى حكاية طريفة:

- كنت أتعرض لمتاعب شديدة في سجن " كفر صقر ". أزمعت أن أنتقل إلى سجن البندر، ولكن كيف؟

أقمت مع مجموعة كبيرة من النزلاء حلقة ذكر. كان" المثقاب " خلالها يصنع ثقباً هائلاً في الحائط، ولم يكن في نيتى الهروب. كنت أريد أن أنبّه المسئولين إلى خطورة بقائى داخل سجن " كفر صقر ". وثانى يوم، نقلت بالفعل إلى سجن البندر، وقلّت متاعبى.

***

تاريخ الجريمة في بلادنا ينبض بعشرات الأسماء التي يروى حكايات بعضها الآن تراثنا الشعبي، مثل ابن عروس، وأدهم الشرقاوى، ومتولى شفيقة، وياسين بهية الذي قتله الهجانة - ذات يوم - من فوق ظهر الهجين.

يقول لى فرج خليل زهران إنه قد سمع عن الأدهم، وإن لم يتعرف إليه شخصياً، وإن الجانب الذي استهواه، حول قضية الثأر لديه إلى مقاومة لظلم الإقطاع والسلطة.. لكنه يرفض تماماً خط الصعيد. كان - في رأيه - سفاحاً، يقتل لأتفه الأسباب. مع ذلك، فإن آلاف الأفدنة من غيطان القصب والذرة لم تنقذه، ولم ينقذه الجبل: " بصراحة.. ده ما كانش راجل"!

ويضحك ابن شفيقة لما أسأله:

- متى شعرت بالخوف؟

- بعد أن هجرت الجريمة بأكثر من ١٥ عاماً، ومنذ نحو خمس أو ست سنوات، سرت إشاعة - لا أدرى مصدرها - أنى اعتقلت، ثم تأكد لى أنها مجرد شوشرة، أجاد بعضهم نسجها، وقال لى المسئولون: ما دمت بعيداً عن الجريمة فلا تخش شيئاً.

ويزيح العصابة التي كادت تخفى عينيه:

- ربما لن تصدق ما سأقوله الآن.. لكنه الحقيقة التي اجتهدت أن أخفيها عن الناس، ثم لم يعد - الآن - ما يبرر إخفاؤها.

يعتدل في جلسته، ويضيف:

- على الرغم من حياة الجريمة والسلاح والليل والأعوان، فإنى لم أقتل شخصاً واحداً. كان الأمر مجرد تهديد. تكفلت الحكايات الرهيبة والشائعات بقتل المئات، بل إنه لم يصدر علىّ حكم إلاّ في داخل المعتقلات، لعدم إطاعة الأوامر، أو إثارة الشغب.. وصحيفة حالتى الجنائية تخلو من جريمة واحدة!

***

الظاهرة الطريفة أن المجرم الذي يتوب تعيّنه الحكومة خفيراً.. هل لأنه ألف حيل المجرمين، أو لأن الاسم يبث الخوف في نفس من يفكر في الجريمة؟

محمد مصطفى الذي حكم عليه بالسجن ٨٥ عاماً يعمل الآن خفيراً في احدى الشركات.. وعم فرج خليل زهران عين هو الآخر خفيراً في مضرب السنبلاوين لمدة أربع سنوات، ثم قدم استقالته.

- لماذا؟

- كان مأمور مركز السنبلاوين هو الذي رشحنى لهذا العمل، بعد أن تعددت حوادث السرقة، واستطعت - بالفعل -- أن أرشد على عصابة. ومضت الأعوام، ومكافأتى الشهرية خمسة جنيهات. قدمت أكثر من شكوى، أُهملت جميعها، فاستقلت. هل أعطّل مصالحى من أجل خمسة جنيهات؟!

***

كيف انتهت الأسطورة ؟

يقول لى فرج خليل زهران:

- قبل قيام الثورة بعامين، كنت قد أقلعت عن الجريمة تماماً وإن سلّمت نفسى في عام الكوليرا (١٩٤٧) بعد أن عانى أهلى وأصدقائى التعب والمهانة. أدركت أن جريمتى الكبرى هى الجناية على راحة هؤلاء الناس، وقال لى فهمى أبو حسن - عضو مجلس النواب حينذاك - أحسن تسلم نفسك.. البوليس حط فلوس للّى يبلغ عنك. وافقت. اتصل بإبراهيم عبد الهادى باشا رئيس الوزراء أيامها. حصل على وعد بأن أعامل معاملة طيبة، وتوجهت مع فهمى أبو حسن إلى المنصورة. كان مدير الدقهلية ينتظرنى بسيارته عند مدخل المدينة، لم يكن معه سوى السائق. أشار إلىّ فهمى أبو حسن وقال: فرج أهه يابيه.

- ثم ؟

- تنقلت لمدة أربع سنوات بين كفر صقر والمنصورة والسنبلاوين.. أسدد محاضر ٣٨ قضية، ثم أفرج عنى.

- قل لى ياعم فرج.. انتهى كل شئ.. فأين كنت تختفى؟

- في الخلاء.. تحت شجرة، أو داخل غيط.. لأنى هكذا أكشف " الجو "، أما إذا اختبأت في بيتى، فقد كنت أوزع الرجال من حوله للمراقبة. فإذا اطمأننت إلى أصحاب البيت، أعطيتهم السلاح، ودعوت الرجال إلى الدخول.

- وكيف تطمئن؟

- الإنسان المسىء أعرفه على طول.

- الجريمة لا تفيد.. هل تؤمن بذلك؟

يعلو صوته:

- وأبصم بالعشرة.. ماذا أخذت؟.. كل الذي أمتلكه الآن فدانا ونصف الفدان، وستة أفدنة أستأجرها، وأعيش من إيرادها مع أسرتى الكبيرة العدد. وأتذكر الماضى، وأحزن.

- ضميرك.. ألم يؤنبك؟

- صدقنى.. أنا لم أسرق إلاّ الإقطاعيين.. طيلة أعوام الجريمة لم يحكم علىّ إلاّ بجنيهين غرامة مقابلاً لثقب المركز.. وربما تشاجرت في المعتقل، فحكم علىّ - في الداخل - بشهر، أو شهرين.

***

- كم عمرك؟

- أنا من مواليد ١٩١٦.. احسب بقى.

- هل تعلّمت؟

- يا دوب اكتب اسمى.

- أسرتك؟

- ثمانية.. بالإضافة إلى شقيقاتى الثلاث وزوجتين.

- كيف تربى أولادك؟

- إنهم أصدقائى.. لا أذكر أنى ضربت أحدهم يوماً.

- ما الفارق بين الأمن على أيامك.. والآن؟

- أبسط شئ أن العصا كانت سلاح الخفير بدلاً من البندقية.. تغير الوضع تماماً.. المجرم يفكر عشرات المرات قبل أن يقدم على جريمته.. لأن عين الأمن صاحية، ومعظم الجرائم تفشل قبل ارتكابها.

***

الرجل يعانى لحظة الغروب في استسلام.

كان الفتوات - حتى العشرينيات - يفرضون سطوتهم على أحياء القاهرة والإسكندرية، وكان المطاريد في الصعيد، وفى الدلتا، يخضعون كل شئ لطلقات الرصاص.

ثم فرض القانون كلمته.

الشعور بالإشفاق - وحده - يتملكنى، والرجل يودّعنى قائلاً:

- أنا تعبت.. الوقت مش بتاعى.. عاوز أستريح!

١٩٧٠/٥/١٦

رهبان يدرسون الحضارة الإسلامية

ثمة قضايا تصلح للنقاش في كل حين، دون أن يتوصل المناقشون إلى قناعة محددة، فهي قضايا بلا بداية ولانهاية، احتملت الكثير من الآراء، وبوسعها أن تحتمل المزيد. حين يرين السكون على سطح البحيرة، فإنه من السهل تحريكها بإلقاء حجر اسمه الفصحى والعامية، الشعر التقليدى وشعر التفعيلة، الغناء القديم والغناء الحديث، إلى غير ذلك من القضايا التي يطرحها الباحثون للمناقشة. إنها قضايا قديمة، ومعاصرة، ومستقبلية أيضاً.

ولعل الاستشراق **Orientalism** في مقدمة تلك القضايا. ما أكثر الكتب والدراسات التي تناولته، وعرضت لأصوله التاريخية، واتجاهاته، والإيجابيات - أو السلبيات - التي يتضمنها، والجديد الذي يمكن أن يبشر به.. لكن ذلك كله قد تحرك - لا يزال - في دائرة، فالنقاش متجدد، والأسئلة مطروحة، والأجوبة لا تغطى المساحة المطلوبة، والكلمة الحاسمة أشبه بالسراب الذي يلتمع أمام أعيننا في نهاية الطريق.

حاولت - في كتابى مصر.. من يريدها بسوء - أن أضع بعض النقاط التي يمكن أن تلتقى عندها، أو حولها، تلك الآراء المتناقضة، فاجتهادات المستشرقين يجب أن تجاوز صفتها كاجتهادات - عدا تلك المثقلة بالغرض - والبديهى ألاّ نرفضها، ونستنكرها، ونعدّها - دون

قراءة - خطأ وخطيئة، وإنما يجدر بنا أن نضعها في ميزان الاجتهاد، وفى الكفة المقابلة اجتهاداتنا نحن. نناقش ونتفق ونختلف، لكن العلمية تظل دائماً هى لغة الحوار.

ثمة من يرى في الاستشراق منهجاً غربياً في رؤية الأشياء، والتعامل معها، باعتبار أن هناك اختلافاً جذرياً في الوجود والمعرفة بين الشرق والغرب. وثمة تعريف يجد في الاستشراق محاولات لدراسة الشرق، بهدف تحقيق السيطرة عليه لصالح الغرب. أما إدوار سعيد في كتابه المهم " الاستشراق " فهو يرى في الاستشراق أسلوباً غربياً للهيمنة على الشرق، من خلال إعادة صياغة ملامحه الفكرية والسياسية، وممارسة الوصاية، أو السلطة بتعبير أكثر قسوة - عليه. ويصف الإيرانى جلال آل أحمد المستشرقين بأنهم السماسرة الرسميون للاستعمار (جلال آل أحمد: الابتلاء بالتغريب - ت إبراهيم الدسوقى شتا - ٧٤). وأما الباحث أحمد عبد الحميد غراب فهو يقترح تعريفاً أكثر راديكالية: " الاستشراق دراسات أكاديمية، يقوم بها غربيون من أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب: عقيدة وثقافة وشريعة وتاريخاً ونظماً ونزوات وإمكانات، بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعى العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصرى والثقافى للغرب المسيحى على الشرق الإسلامى" (رؤية إسلامية للاستشراق - أحمد عبد الحميد غراب - دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام بالرياض - ٩)

***

أذكر من قراءاتى الباكرة كتاباً قديماً وجدته في مكتبة أبى. تناول آيات من القرآن الكريم " ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى". وأفاض الكاتب - لا أذكر من هو - في شرح معنى كلمة" ضال"، فقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعاقر الخمر، ويلعب القمار، ويصادق النساء، ثم هداه الله. وهو اجتهاد سخيف، ومغلوط من ألفه إلى يائه، وإن كان له الفضل في تنبيهى إلى خطورة الاجتهادات الغربية المغرضة التي تمثل - بالتأكيد - بعداً مهماً في اجتهادات الاستشراق.

مع ذلك، فلعلى أصارحك بأنى أرفض - غالباً - نظرية التآمر. يصعب القول إن "الاستشراق هو عين الاستعمار التي بها يبصر ويحدق " (الهلال أكتوبر ١٩٨٧). ومن الصعب القول أيضاً أن " المستشرقين ليس بينهم منصف، فضلاً عن متعاطف، وانهم جميعاً ملة واحدة يهدفون إلى غاية واحدة، وهى إطفاء نور الله " (رؤية إسلامية للاستشراق - ٥٠). بل إن البعض يرى أن القاعدة التي لا تتغير، هى أن الاستعمار يصحبه الاستشراق دوماً، والتوسع الاستعمارى يصحبه التوسع الاستشراقى دوماً " (المرجع السابق - ١٠)

وفى المقابل، فإن الكثير من اجتهادات المستشرقين يصدر عن الغرض، ووجهة النظر الاستعمارية، واختلاف العقيدة، إلى حد رفض العقيدة المسيحية لديانة الإسلام، والإحساس بالتفوق، وترسبات الغزوات - والانحدارات - الصليبية، وعلى حد تعبير

جارودى، فإن المستشرقين - أظن أنه يقصد غالبيتهم - يشغلهم الانتقاص من الحضارة العربية، وإن أمكن، فتغييبها من الذاكرة.

عانى العرب والإسلام من اتهام المستشرقين بأنه دين مقطوع الصلة بحضارة العصر، فهو يرفضها، مقابلاً لعجزه عن اللحاق بها. وثمة مزاعم أن القرآن استمد الكثير من موضوعاته من مصادر يهودية ومسيحية، وثمة من ينظر إلى الإسلام باعتباره ديناً يدعو إلى الخوف وعدم الاطمئنان، وبخاصة في ضوء " سماحة " الدين المسيحى!. وهى نظرة - كما ترى - تهمل دعوة الإسلام إلى العدل والتكافل والمساواة بين البشر، وادعاءات بأن الرسول كان يدّعى الوحى، وأنه كان يعانى نوبات صرع واضطرابات عصبية، وكان مصاباً بالهستيريا. وهناك من حاولوا التشويه عن طريق تأويل معانى القرآن تأويلاً فاسداً يغفل الدلالات الحقيقية.. والعديد من كتب الاستشراق لا تزال - حتى الآن - كما يقول إدوار سعيد " تنشر الكتب والمقالات باستمرار، عن الإسلام والعرب، وهى لا تختلف إطلاقاً عن الجدل الخبيث المعادى للإسلام في القرون الوسطى وعصر النهضة" (الاستشراق - ٢٨٧).

ويركز بعض المستشرقين على النماذج السلبية من الأدب العربى، مثل الغزل الجنسى، والاتجاهات المنحرفة في التصوف، وتزييف الوقائع التاريخية، واختلاق السير، والتكسب بالشعر، ومداهنة السلطة إلخ.. ويعتبرون تلك النماذج ممثلة للتراث العربى، والإسلامى بعامة.

وتبين الخطورة عن ملامحها، عندما نعلم أن الصورة التي صنعها المستشرقون عن دول العالم الإسلامى كان لها أكبر الأثر على صانعى القرارات في حكومات الغرب.

ربما أسرف البعض في نقل الاجتهادات التاريخية للاستشراق، لكن من الصعب القول أن الاستشراق قد بدّل أفكار العرب في التاريخ، فضلاً عن الفقه والحديث والتفسير إلخ. بل إن عاطف العراقى يؤكد أنه " لولا الاستشراق لما عرفنا نحن علومنا، بكافة أنواعها، وبمسلاتها وميادينها كعرب. لقد وجد الاستشراق - لو التزمنا بالدقة في التتبع التاريخى - منذ أكثر من عشرة قرون من الزمان، ليبقى، وقدم لنا أهله صفحات بيضاء " (الأهرام ٢٠٠١/٣/١٨)

المنهج هو الإنجاز الأهم - ولعله الوحيد - للاستشراق في العقلية العربية. لم تعد الدراسات توضع عفو الخاطر، إنما هى تؤطر داخل قانون علمى صارم هو المنهج، وهو انجاز ذو أهمية قصوى بالفعل.

والحق أن الاكتفاء بالسخرية من نقداتنا للاستشراق، وللفكر الغربى بعامة، مثل الدعوة إلى عدم استعمال التكنولوجيا الغربية، ينطوى على مغالطة سخيفة، فلا خلاف على أن العلم والتكنولوجيا - في أبعادهما الإيجابية - يتسمان بالعالمية وعدم المواطنة، لأنهما يتجنسان بجنسية العلم نفسه، ويحصلان على هويته. ومن حق أى امرئ، في أى مكان في العالم، أن يفيد منها.

أما إذا تحددت معطيات العلم والتكنولوجيا في الأبعاد السلبية، كالقنابل الجرثومية أو الكيماوية وغيرها مثلاً، فإن الرفض يطرح نفسه كضرورة أخلاقية وحتمية.

الأمر نفسه بالنسبة للثقافة التي تحرص على الإضافة والتطوير ومستقبل الإنسان في إطلاقه، بعكس الثقافة التي تحمل وجهات نظر استعمارية أو مغرضة، والمثل الذي يحضرنى: ثقافة العدو الإسرائيلى التي تعتمد الكذب والأسطورة والخديعة، وتتغافل الحقائق المؤكدة.

ثمة عدد من المستشرقين، حاولوا التخلص من شوائب التفكير العنصرى، في تناولهم لقضايا الشرق، ولعله يجدر بى أن أضيف: لقضايا المجتمعات الإسلامية، فالإسلام هو الهدف الأهم لمناقشات المستشرقين. أشير إلى ماكسيم رودنسون، جاك بيرك، هنرى لاوست، أندريه ميكيل، كلود كاهن، بلاشير، شارل فيال، وغيرهم.

المستشرق الفرنسى ماكسيم رودنسون - ذلك الذي يصعب إدانته، ارتكازاً إلى مناصرته المعلنة للحق العربى، وتأكيده أن إسرائيل ظاهرة استعمارية، رغم يهودية ديانته - له كلمات، تحمل وجهة نظر، لعلها تقرب نقطة الختام في هذه القضية القديمة، المتجددة.

يقول ماكسيم رودنسون:" كانت الدراسات والأبحاث التي يجريها الأوروبيون حول الحضارات الشرقية، تولى فقه اللغة ونصوصها اهتمامها الأول، ومثل هذا الاهتمام انتهى. فهناك علماء من الشرق وصلوا إلى المستوى العلمى للباحثين الغربيين، واتبعوا أسلوبهم في الدراسات التي يجرونها حول بلدانهم. لقد اختفت اليوم فكرة إعطاء الأولوية لفقه اللغة في

معظم الدراسات الشرقية، ومن هنا فإن دراسة الشرق العربى تتم الآن في مناخ مغاير وظروف جديدة، ويقوم بها مختصون محليون من بلدان الشرق، وليس من قبل مستشرقين أجانب. وهذا ما كنت أعنيه بنهاية الاستشراق في معناه التقليدى. غير أننى لا أريد أن أقول أبداً أن اهتمام الباحثين الأوروبيين بشئون الشرق العربى، ومعطياته الثقافية والفكرية، قد انتهى تماماً. ثمة اليوم نوع آخر من العلماء غير المستشرقين، يبدون اهتماماً كبيراً بالشرق العربى ومعطياته الحضارية. وأعتقد أننا نستطيع اليوم أن نغيّر الاسم الذي يطلق على هؤلاء الذين يهتمون بالشرق العربى من الأوروبيين. بالأمس كانوا يسمون بالمستشرقين. أما أنا فأميل إلى أن أطلق عليهم اسم " المستعربين "، أو كلمة " المختصين " سواء في المجالات الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية أو الفكرية (مجلة ٢٠٠٠)

فهل يكون رأى ماكسيم رودنسون - وهو من هو في دنيا الاستشراق - سبيلاً إلى كلمة سواء بين الذين يجدون في الاستشراق شراً خالصاً، والذين يرون فيه ظاهرة حضارية إيجابية، لتفرض الموضوعية العلمية الفاهمة - ختاماً - رأيها ؟!

***

لمدرسة الاستشراق التقليدية وجهة نظرها في المجتمعات العربية. ظلت تنتمى - بتخلفها - إلى العصور الوسطى، ثم جاء الغرب - في مطالع القرن التاسع عشر - لينتشلها من وهدة التخلف، ويضعها على طريق التقدم.

أما الاستشراق - في تقدير الكثيرين من مثقفى العربية - فله وجهان: ثقافى وسياسى، بل هو الوجه الثقافى للسياسة الاستعمارية في الشرق، ما تستهدفه كتابات المستشرقين هو دراسة الشرق ليعرفه الغرب، ليفهمه الغرب، يفهم تاريخه ومعتقداته وعاداته وتقاليده. وهو يصدر في ذلك كله عن اجتهاد يعتمد على القراءة والملاحظات الآنية، فهو لم يعش الموروث والتراث الذي عاشه من ينتمى إلى هذا الشرق. ومهما حاول البعيد عن التجربة أن يرصد تفصيلاتها ومنمنماتها، فسيظل الكثير من تكوينات الصورة، فضلاً عن التفصيلات والمنمنمات، غائباً عنه. بالإضافة إلى ذلك، فلأن الاستشراق بعامة يخاطب الآخر - يتحدث إلى الغرب عن الشرق- فإن اجتهاداته تستند - بالضرورة - إلى رؤية غربية، ومناهج غربية، ولغة غربية. والفرق كبير بين أن أكون منك، وأحدثك - بلغتنا المشتركة - عنا، عنى وعنك، وبين أن أكون " آخر "، وأحدّث " الآخرين " عنك. الاستشراق علم غربى، ومن الصعب تصور أن يصدر العلم، ولا يتجه بعيداً عن صالح الجهة التي ينتسب إليها. إن حوار الحضارات، أو حتى صراع الحضارات، هو البديل المستقبلى للإستشراق.

الآراء المقابلة، تركز على أهمية اجتهادات المستشرقين. إنها ترى من جوانب تاريخنا الدينى والسياسى والاجتماعى ما قد لا يلفت أنظارنا نحن أصحاب هذا التاريخ. نحن نعيش الحدث، اتصاله بما سبق وما سيأتى، لا تشغلنا التفصيلات ولا الجزئيات لأننا اعتدناها، ألفناها. أما المستشرق فإن نظرته المدققة تلم بأبعاد الصورة جيداً، تكويناتها، ملامحها، ألوانها، ظلالها،

عمقها. طبيعى أن العين التي ترى من الخارج ترى الصورة أفضل من العين التي تحيا في الداخل. نحن نعتاد ما نحياه، ما نعايشه، فنهمله. لا يثير انتباهنا بقدر ما يثير انتباه العين التي لم تألف المشهد.

بنت الشاطئ تقرر - في بساطة وصراحة - أن الثقافة العربية تدين للمستشرقين بجمع تراثها وصونه من الضياع. وتسأل: وماذا لو تركوا لنا تراثنا لنا؟ أما كنا أهلاً لجمعه وصونه؟.. وتجيب - بملء يقينها كما تقول - كلا، كنا في غفلة منه، لا نكاد نحس وجوده، أو نعرف قيمته، أو نقدر حاجتنا إليه. لكن بنت الشاطئ تشير إلى نشأة الاستشراق الأولى في خدمة الكنيسة والاستعمار، وانعكاس ذلك - فيما بعد - على التواء الأساليب في توجيه العبارات واضطراب المنهج " في سوق الأخبار بغية استخلاص نتائج خطرة سامة، تمس ديننا وتاريخنا".

وعلى الرغم من اعتراف بنت الشاطئ بالدور الذي قام به الاستشراق في خدمة الثقافة العربية - وتحقيق التراث ونشره بخاصة - فإنها تحذر من أن نتخلى عن تراث غال للأجانب الغرباء - والتعبير لها - الذين كثيراً ما تعوزهم النزاهة والإخلاص.

لعل أصدق وصف للمستشرقين - بعيداً عن المبالغات الكلامية - هى أنهم - على حد تعبير ميشال جحا - أساتذة وباحثين أكاديميين، تخصصوا في دراسة اللغة العربية، والحضارة العربية، وقضايا العالم العربى الفكرية، والدين الإسلامى، وهم يختلفون - بالتأكيد - عن أولئك الذين درسوا العربية لهدف تبشيرى أو سياسى أو تجسسى أو إعلامى أو ديبلوماسى.

***

نجيب محفوظ هو الذي دلّني على الأب جاك جومييه.

كنت قد قرأت كتاب جومييه عن الثلاثية. طلبت من محفوظ أن يعرفنى بالرجل. وصف لى موضع دير الدومينكان بشارع مصنع الطرابيش، وقال في بساطته الذكية:

- لأنه راهب، فأغلب الظن أنك ستلقاه في أى وقت!

كان جو الأيام الأخيرة من مارس ١٩٦٣ ربيعياً معتدلاً، يعمق من تأثيره الأشجار المتلاصقة في حديقة الدير ..

بدا في أواخر الخمسينيات، بشرة بيضاء مشوبة بحمرة، وعينان زرقاوان، صافيتان، وبسمة طيبة، تملأ ملامحه. يرتدى زى الرهبان الكاثوليك الأبيض المختلط بالبنى، والصندل الذي يكاد يقتصر ارتداؤه على رهبان الدومينكان، يضيفون إليه في الشتاء جورباً يغطى القدمين [رهبنة الآباء الدومينكان أنشأها القديس دومنيك في ١٢١٥ ميلادية].

أصارحك بأنى أشفقت - في البداية - من تناول ما قدّمه لى الأب جومييه: سلطانية زبادى وكوب شاى. الموروث المستقر في أعماقى هيّأ لى ما لم أفلح في إهماله!. ثم وجدته مستساغاً، وأقبلت على تناوله بتلذذ.

كنت أتصور أن كل في الدير من الكاثوليك. لذلك استعدت اسم رمضان طباخ الدير حين نطقه أمامى. وفهم الرجل مغزى الاستعادة، فقال:

- أنا مسلم.

وعرفت أن الرجل يحيا في شقة من حجرتين بالحديقة التي يطل عليها مبنى الدير، وأن الأب قنواتى يتكفل بمصاريف تعليم أبنائه، وأن الرهبان يعطونهم دروساً خصوصية.

بدت لى الحياة في الدير مغايرة تماماً لما كنت قرأته عن مناصرة رهبان الدومينكان لمحاكم التفتيش في العصور الوسطى، والدور السلبي الذي أسهموا به في قتل عباد الله الذين لم يحصلوا على صكوك الغفران!.. الآباء قنواتى وجومييه ومونو وشارتييه وفونتين وغيرهم، والمكتبة الهائلة [لعلك تلحظ أن عدداً من كبار الباحثين أشاروا - في مقدمات كتبهم - إلى المعاونة السخية التي أفادتهم بها مكتبة دير الدومينكان]، والجو المضمخ بالروحانية، والتعاطف المؤكد الذي يتعامل من خلاله رهبان الدير مع عماله من المسلمين.. ذلك كله، بدا مختلفاً - إلى حد التضاد - مع الدور السلبي الذي أدته أديرة الدومينكان في محاكم التفتيش - وهو دور يفوق كل ما كان للأديرة الكاثوليكية الأخرى، بداية من توفير أماكن عقد الجلسات، وانتهاء بمباركة عقاب الخطائين!

دير الدومينكان لا يقع داخل الصحراء، كما جرت العادة عند إنشاء الأديرة [تأسس الدير في ١٩٣٢]. إنه يختلف - مثلاً - عن دير وادى النطرون ودير المحرق ودير العربة، وغيرها, فهو يقع في منطقة صناعية وسكانية، باعتبار ذلك بعداً مهماً في الممارسة الدينية لرهبان الدومينكان، أن يكونوا قريبين من التجمعات الصناعية والسكانية.

الدير يطل على البيوت وصخب الطريق. وكانت نور في اللص والكلاب تطل عليه من حجرتها العلوية في البيوت المقابلة. وإذا كان نجيب محفوظ قد أفاد من خصوصية البيئة، فإن جومييه قد تفهم تلك الخصوصية، ووصلها بالبيئة المكانية لأعمال نجيب محفوظ التي كان الخلاء والصحراء والحياة على حافة الموت محاور لها. أشير - على سبيل المثال - إلى خان الخليلى وبداية ونهاية واللص والكلاب وغيرها.

روى لى نجيب محفوظ عن المعاكسات التي لقيها رهبان الدير على أيدى صبية حى العباسية، وكان محفوظ، آنذاك، يتابع معاكساتهم، ولا يتدخل. أضاف الأب جومييه إلى رواية محفوظ أن معاكسات الصبا لم تمنع رهبان الدومينكان من أن يكونوا هم أول من قدم نجيب محفوظ إلى الساحة الإبداعية العالمية. لم يقف الأمر عند الكتابة عن الثلاثية، أو إبداعات محفوظ الأخرى في المجلات الفرنسية، وفى مجلة " ميديوى " التي يصدرها المعهد، لكن رهبان الدومينكان ترجموا العديد من روايات محفوظ وقصصه القصيرة .

***

قال لى الأب جاك جومييه عن بواعث اهتمامه بالأدب العربى: قضيت فترة طويلة - قبل الحرب العالمية الثانية - في دراسة اللغة العربية وآدابها بمدرسة اللغات الشرقية في جامعة السوربون. وفى عام ١٩٤٥ قدمت إلى القاهرة لدراسة الأدب المصرى، والتمهيد لإعداد رسالتين للدكتوراه، أولاهما عن الآراء السياسية في تفسير المنار، والثانية عن موكب المحمل إلى الأراضى الحجازية. ومنذ ذلك الحين وأنا أتابع التطور الثقافى والفكرى في بلادكم، وأكتب

دراسات تنشرها مجلة " ميديوى " التي تصدر عن معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين، وكان المشرف على تحريرها الأب قنواتى، والأب **Beaurecueil**

والحق أن اهتمامى الفعلى بالأدب العربى لم يبدأ إلا في ١٩٥٦، عندما أشار على بعض الأصدقاء بقراءة نماذج من هذا الأدب، مثل طه حسين الذي لخص لى ثلاثية نجيب محفوظ في صورة محببة، دفعتنى إلى قراءتها، ونجيب بلدى الذي دلنى على أرض الشرقاوى وغيرهما. من يومها، وأنا أختار ثلاث أو أربع روايات كل عام، فأقرؤها أكثر من مرة، ثم أعد عن كل منها دراسة منفصلة، لتنشر في " ميديوى ". والحق أيضاً أن اهتمامى ظل لفترة طويلة مقصوراً على ثلاثية نجيب محفوظ، لا يجاوزها. إن هذه الرواية قمة لا مثيل لها في الأدب العربى. ومن الغريب أن بعض النقاد - لسبب لا أفهمه - يذهب إلى أن نجيب محفوظ قد تأثر في تكنيك هذه الرواية، وفى أسلوبها، بهذا الكاتب أو ذاك من كتّاب الغرب. وأنا أقرر - نتيجة لدراسات متصلة ومحاولات صادقة لفهم هذا العمل العبقرى - أن نجيب محفوظ لم يتأثر في هذا العمل إلا بنجيب محفوظ نفسه.

كان جوميه أول من وضع دراسة متكاملة - بالفرنسية - عن الثلاثية [١٩٥٩]. صدرت في حجم كتاب، بترجمة لنظمى لوقا. تلتها - بعد أعوام - كتب ورسائل جامعية، لكن الريادة تظل لذلك الكتاب الحافل بالمناقشات والتحليل والآراء الصائبة، والتي تواجه الاختلاف.

سألته:

- ما سر إعجابك بالثلاثية؟

قال:

- إنها - في رأيي - شحنات متدفقة من العواطف الإنسانية الصادقة. إن أهم ما يتميز به هذا العمل العظيم، أنك ما تكاد تقرأ بضع صفحات حتى تشارك أبطال الثلاثية حياتهم، فتسر لأفراحهم، وتأسى لأحزانهم، ولا تخرج من هذه الحياة - الرائعة رغم كل شئ - إلا عندما تأتي على الصفحة الأخيرة من " السكرية " لتظل شخصياتها مرتسمة في ذاكرتك . إن خروج أمينة - مثلاً - في نزهة لمدة نصف ساعة إلى سيدنا الحسين، يتحول من حادثة بسيطة، إلى مأساة لها مبرراتها الفنية بين الزوج المتسلط والأم المستكينة في بيتها.

بهذه المناسبة، أنا أقرأ لبعض نقادكم اتهاماً لنجيب محفوظ بالفوتوغرافية . وأنا لا أجد في الفوتوغرافية تهمة على الإطلاق. السمة الغالبة على روايات محفوظ - بالفعل - هي الفوتوغرافية. وهذا ليس عيباً, لأن التصوير ليس عملية ميكانيكية، الكاميرا التي تستخدم في التصوير شيء صلب، لا فائدة منه بغير المصور الفنان الذي يقيس الزوايا والأبعاد، ويختار الأماكن المناسبة لالتقاط صورة, ونجيب محفوظ هو هذا المصور الفنان.

سألته: في دراستك عن الثلاثية، أشرت إلى أن المجال متسع لرباعية تكمل أحداث الثلاثية. وقد كتب نجيب محفوظ بعد الثلاثية روايتين هما اللص والكلاب والسمان والخريف.. ألا تعد إحداهما امتداداً للثلاثية؟

قال: ثمة من رأى في السمان والخريف امتداداً للثلاثية. وأنا لا أوافق على هذا الرأى، لأن السمان والخريف تجربة فرد. أما الثلاثية فإنها تتناول حياة أجيال متتابعة لأسرة بأكملها. ولو أن الفنان كتب رابعة لانتظرنا منه خامسة، وهكذا.. الرواية ممتدة بلا نهاية محددة، بعكس اللص والكلاب - مثلاً - التي تنبض سطورها بدراما متكاملة.

ومع أن جوميه رفض - في دراسته للثلاثية - شخصية ياسين من الناحية الأخلاقية، فإنه قد تعاطف مع شخصية سعيد مهران في اللص والكلاب. وجد في الظلم الذي تعرض له مهران ما يدعوه إلى الدفاع عنه، أو الترافع عنه حسب التعبير الذي قاله لى!

قلت: وما رأيك في روايات نجيب محفوظ الأخرى؟

قال: زقاق المدق - في بساطتها وشفافيتها وصدقها - من أروع أعمال محفوظ. واللص والكلاب ذات تكنيك جديد بالنسبة للمبدع وللقصة العربية جميعاً. وبطل هذه الرواية رمز للثأر من المجتمع الذي ينتقم بلا جريرة، ومن الزوجة الخائنة. لقد أحببت سعيد مهران. أما السمان والخريف فبطلها إنسان عنيد ويائس في آن، إنه يعيش في عالمه الخاص، لا يريد أن يعترف بتطور الحياة من حوله، ويرفض الجديد دوماً. إنه يرفض الواقع، ويريد الفرار من

مصيره، في الوقت الذي حبس نفسه في أنانيته خارج تيار الحياة، وفى الوقت الذي كان فيه يائساً من كل شئ, لا فائدة في زوجه لأنها عاقر، لا فائدة في ابنته لأنها تنكره، لا فائدة في عمله، لا فائدة في أى شيء.

قلت: ما رأيك في أعمال الأدباء العرب الآخرين؟

قال: قرأت الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى [أذكرك بأن هذا الحوار الأول جرى في عام ١٩٦٣] وكنت أود قراءتها مرة ثانية، لولا أنى نسيت نسختى عند مسيو بلاشير في باريس، وعودة الروح عمل جيد مشحون بالعواطف الإنسانية الصادقة، وأعجبنى كتاب المسيح عيسى بن مريم لعبد الحميد السحار، وإن كنت آخذ عليه بعض الأخطاء التاريخية والفنية . وقرأت أيضاً مجموعة أرخص ليالى ليوسف إدريس، وتعد أقصوصة نظرة بالذات مثلاً لبساطة الأسلوب والوصف. هذه القصة التي لا تزيد عن صفحتين من كتاب، ستعد بلا شك إحدى العلامات المميزة لتطور الأقصوصة في مصر. والأيام لطه حسين، وقيمته تأتى في صدق الكاتب وشفافيته وهو يكشف عن ذاته فترة طفولته وصباه. والحق أن النهضة الثقافية والفكرية في مصر مدينة - إلى حد كبير - لطه حسين الذي قام بدور ضخم في إثراء هذه النهضة بترجمة روائع من المؤلفات العالمية إلى العربية، وقرأت كذلك بعض مؤلفات يحي حقي الذي يجدر بالأدب العربى أن يعتز به كثيراً.

قلت: ما الشخصية التي تعتز بها في أعمال الروائيين المصريين؟

قال: إنها - بلا جدال - شخصية كمال عبد الجواد في الثلاثية. ولد كمال في عام ١٩٠٧، وولد نجيب محفوظ عام ١٩١١. الفرق إذن أربع سنوات، وقد استطاع نجيب محفوظ - في شخصية كمال - أن يعبر عن أزمات جيله ومشاعره وتطلعاته.

قلت: لماذا قصرت اهتمامك - بالنسبة للأدب العربى - على الرواية؟

قال: لقد قرأت مؤلفات كثيرة أعتز بها مثل مؤلفات أحمد أمين فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام وغيرها، لكننى أعطى الرواية اهتماماً أكثر، لأنها أقوى ألوان الأدب إمكانية للتعبير عن القيم الإنسانية، وهى وسيلة بارعة للتعارف بين الشعوب، فكل شعب يجد في أعمال الروائيين الأجانب خصائص شعوبهم وروحها وتقاليدها وعاداتها. إنها تؤدى دوراً - في هذا المجال - لا يقل عن دور الأفلام السينمائية.

قلت: أعلم أنك تقضى معظم ساعات يومك في قراءات متصلة لكل الآداب العالمية.. فما مدى تأثر أدبنا بالآداب والاتجاهات الفكرية في العالم؟

قال: إن أى أدب في العالم لابد أن يتأثر بالآداب الأخرى. وأنا أقرأ لنقادكم كثيراً عن تأثر هذا الأديب أو ذاك ببعض الأعمال الأدبية الأجنبية. ورأيى أن هذا الاتهام دليل على أن الأديب ليس متقوقعاً في إقليميته، وإنما هو يتابع التيارات المختلفة في الآداب العالمية ويتأثر بها. لم يتهم أحد من نقاد فرنسا سارتر - مثلاً - بأنه أخذ عن الإغريق أساطيرهم في بعض أعمال مثل الذباب وغيرها، لأنه لم ينقل، وإنما قرأ وهضم تماماً، ثم كتب معبراً عن آرائه وذاته

وتجاربه. ونجيب محفوظ كذلك أخذ شخصية السفاح في اللص والكلاب من الصحف، لكن العمل الأدبى فيه إبراز لشخصية السفاح بصورة أصدق وأعمق مما كتب في الصحف.

***

كانت للأب جومييه وجهة نظره في قضية ترجمة الأدب العربى إلى اللغات الأخرى. قال لى: الترجمة عبء، عليكم أنتم القيام بتبعاته. فالأرض في ترجمتها الإنجليزية بلغت ٢٥٠ صفحة، بينما الرواية في طبعتها العربية تجاوز الأربعمائة صفحة، ولم يكن ليحدث هذا الحذف الذي أثر - بلا جدال - على قيمة العمل، لو أن عمليتى الترجمة والنشر كانتا بإشراف الهيئات المسئولة عن الثقافة في بلادكم. أضيف أن كلامى هذا ليس جواز سفر للأدب العربى إلى دول العالم، فلابد من توفر العنصر الإنسانى أولاً في أى عمل تفكرون في ترجمته ونشره على مستوى العالم. إن القيم الإنسانية قيم عالمية، يتأثر لها وبها الإنسان في كل زمان ومكان. أيام طه حسين - مثلاً - تقرأ في الخارج لتوفر العنصر الإنسانى فيها، والأرض للشرقاوى، وأرخص ليالى لإدريس، وقنديل أم هاشم لحقى. وأذكر أن البروفسور جاك بيرك قال لى إن قنديل أم هاشم من الأعمال القليلة الممتازة التي يعتز بها هو شخصياً، ويعتز بها أيضاً، ليس الأدب العربى فحسب، وإنما الأدب العالمى كله.

***

وافقت - دون مناقشة - على عرض الأب جوميه بأن أقيم - أياماً تطول أو تقصر - في إحدى غرف الدير، صف من الغرف في امتداد الطابق العلوى، أعرف أن الإقامة فيها تقتصر على رهبان الدير وضيوفه من رهبان الأديرة الأخرى.

قال الأب جوميه:

- توجد غرف خالية.. يمكنك أن تشغل إحداها.

لم أفلت الفرصة. اعتبرتها فرصة حقيقية للتعرف على الحياة في الدير. طقوس الصحو والنوم والصلاة والسلوكيات اليومية، تعلمت كيف أضع البطاقة الصغيرة على باب الحجرة كما في الفنادق: أنا أقرأ.. أنا أكتب.. أنا مشغول.. أنا أنام.. أنا أرحب بالزوار.. لم أقصر وقتى على التأمل والاكتشاف والدهشة، وإنما حرصت على الإفادة مما في الدير من مراجع مهمة، وخلوت إلى أوراق أسجل فيها ما قد لا يكون له صلة بقراءاتى، ولا بالرهبان، ولا بالدير نفسه. مجرد الحياة في عزلة.

شاهدت كنيسة الدير. قبالة المكتبة تماماً، تفصل بينهما الصالة الرخامية الواسعة، والسقف المرتفع بارتفاع المبنى. الكنيسة متواضعة بالمقارنة إلى كنائس أخرى، حضرت فيها مناسبات اجتماعية كعقد قران وصلاة على راحل، ربما لأن الصلاة في كنيسة الدومينكان كانت تقتصر على رهبان الدير، ومن في ضيافتهم من الكاثوليك.

لمحت - ذات يوم - برصاً ضخماً يزحف على جدار الصالة الواسعة. نزعت فردة الحذاء - بتلقائية - وضربته ضربة واحدة، سريعة. سقط البرص على الأرض ميتاً، وإن ظل ذيله يتراقص.

لم يخف الأب جوميه استياءه:

- ماذا فعلت؟

- أرحتكم من أذى هذا البرص.

- البرص لا يؤذى.. وجوده في الدير مفيد.

لجأت إلى الدعابة:

- هل تربونه؟

قال في جدية واضحة:

- لا نعمل على تربيته.. لكننا لا نقتله. إنه يبتلع الحشرات التي تتسلل إلى الدير.

- يقال إنها تفسد الطعام.. تشمه فيفسد.

- طعام البرص هو الحشرات الصغيرة. أما طعامنا فلا يقربه.

وافترت شفتاه ببسمة إشفاق:

- نحن لا نحاول أذيتها.

وحدثني عن خطأ التصور أن البرص ينفث السم في الملح، فتؤذى الإنسان. حياة البرص على الحشرات وحدها . إنه مصدر فائدة للأديرة، فالرهبان لا يؤذونه!

***

يروى كامى في " الطاعون " أن رهبان الدومينكان في أثناء أوبئة القرن التاسع عشر، كانوا يمسكون الخبز المقدس بملقاط، لتجنب الاحتكاك بأفواه البسطاء التي قد تختبئ فيها فيروسات الأمراض، ذلك ما كانت ترفضه تصرفات الأب جاك جومييه، فهو يخالط الفقراء بلا خشية من عدوى مرض، ولا ارتكان إلى المكانة الأرفع.

زارنى الأب جومييه - يوماً - في بيتى بشارع النزهة. لم تعد لقاءاتنا تقتصر على الدير، يزورنى،وأصحبه في جولات بالقاهرة الفاطمية - كم كان يحبها! - نتأمل المعالم والملامح والقسمات، ونستعيد معلوماتنا التاريخية - لعل الأدق أنى كنت أفيد من معلوماته التاريخية - أسأل ويجيب. جرابه أكثر سعة من جراب الحاوى. وتعرفنا - مصادفة كما رويت لك في كتابى "نجيب محفوظ صداقة جيلين" - على بيت الصديق الروائى جمال الغيطانى في درب الطبلاوى، وزرناه. كما تواصلت زياراتنا لميادين الجمالية وشوارعه ودروبه وحواريه وأزقته.

فوجئت - بعد صعودى إلى الأوتوبيس - أن الأب جومييه لم يكن بجوارى, لم يعد بجوارى وتأهبت للنزول، تصوراً أنه لا يزال في المحطة. فلما أشار لى من الدرجة الثانية - لم تكن تعريفة الركوب قد توحدت بعد - أدركت أنه قد اختار الوقوف فيها بدلاً من الجلوس في الدرجة الأولى.

سألته، ونحن نمضى في شارع مصنع الطرابيش:

- لماذا اخترت الوقوف في الدرجة الثانية؟

قال في ابتسامته الطيبة:

- ولماذا لا نقف وسط الناس ؟!

كانت سيرة جمال الدين الأفغانى قد استغرقتنا. حدثنى عن الاجتهادات غير المسبوقة التي عادت بها الأمريكية تيد نيكى من رحلة طويلة إلى الأماكن التي شهدت مراحل حياة الأفغانى. وعرض أن يعيرنى نسخة من كتاب الباحثة الأمريكية، تضمها مكتبة الدير. واتجهنا إلى محطة الأتوبيس على ناصية ميدان سانت فاتيما.

تذكرت إجابة غاندى عن السؤال: لماذا تركب الدرجة الثالثة في القطار؟.. قال: لأنه لا توجد درجة رابعة!

عرفت من الأب قنواتى أن احتفاظ رهبان الدير بطهارتهم، يلزمهم عدم الإنفاق في غير موضعه، وفى أقل الحدود.

وحين بدأت في إعداد مجموعتى القصصية الأولى " تلك اللحظة " رفضت أن يقدمها الأب جومييه . وكلمة الرفض قد تبدو مناقضة للمعنى . كانت المجموعة - كما أشرت في أكثر من مناسبة- أقرب إلى الاسكتشات التي تسبق اللوحة التشكيلية المتكاملة. حاولت أن أعبر عن وحدة الفنون: السرد الحكائى، الهارمونى الموسيقى، الفلاش بك، التقطيع، الكولاج، التبقيع،

الحوار الدرامى، إلى غير ذلك مما جعلته - فيما بعد - قواماً لأولى رواياتى " الأسوار ". قرأ الأب جومييه قصص المجموعة، وقدم لها بكلمات عكست تفهمه للتجريب الذي سعت إليه المجموعة، وإن أسقط ما شابها من سذاجة مؤكدة. أذكر من تقديم الأب جومييه، الذي ترجمه عن الفرنسية صديقى الناقد الكبير فتحى العشرى، قوله إن القارئ سيجد متعة حقيقية في قراءة المجموعة، لأن خصائص الأسلوب وأصالة تجعل من المجموعة عملاً لابد أن يكون موضع اهتمام وتقدير.

المرة الوحيدة التي أظهر فيها الأب جومييه استياءه، عندما كتبت في قصتى أبناء السيد الصافى - تنفيذا لوصيته - يبحثون عن الأخوات [كانت فترات ترددى على الدير باعثاً لكتابتها] عن الحبوب التي قيل لى إن الرهبان يتناولونها لكبت رغباتهم الجنسية. تكلم طويلاً عن نظام الرهبنة الذي يدخله المرء باختياره، وأن كل الرغبات والشهوات لا تساوى الرهبنة، أى تجرد الإنسان وانقطاعه للعبادة.

نشر القصة ضمن مجموعتى انعكاسات الأيام العصيبة. لم أحذف ما أبدى الأب جومييه استياءه منه. وقرأ القصة ضمن المجموعة، فلم يكرر ملاحظته، وهنأنى، كعادته عند صدور عمل جديد لى.

وأذكر أنى أفدت من ملاحظة الأب جومييه عن شمس نوفمبر، وأنها تهب العين أكبر طاقة ضوء، ضمنت الملاحظة مجموعتى " انعكاسات الأيام العصيبة"، فيليب روث يجد - في

روايته "الوصمة البشرية" أن نهارات نوفمبر قليلة الضوء، ولعلى أوافق - من الواقع المعيش - على ملاحظة جومبيه.

***

جورج شحاتة قنواتى. من مواليد حى محرم بك بالإسكندرية (٦ يونيو ١٩٠٥، أى أنه يصغر يحيى حقي بخمسة أشهر، وولد قبل أن يطالعنى نور الدنيا بثلاثة وثلاثين عاماً). أسرته يونانية أرثوذكسية المذهب، لكنه تحول - فيما بعد - إلى الكاثوليكية. تلقى دراسته في الإسكندرية وبيروت وليون بفرنسا. بدأت صلته بالدومينكان عندما التحق برهبنة الدومينكان في باريس عام ١٩٣٤، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة الدومينكان في ١٩٤١، ثم رحل إلى الجزائر، وأمضى فيها ثلاث سنوات، عمل خلالها بتدريس اللغة العربية، وشارك في تحرير مجلة " إفريقيا الدومينكان ". ثم اتسع مجال بحوثه ودراساته، وبالذات في مجال التصوف الإسلامى.، ثم عاد إلى القاهرة في ١٩٤٤، والتحق بدير الدومينكان. حصل على درجة دكتوراه من كندا في ١٩٥٠. شارك في عضوية العديد من المجالس العلمية والثقافية داخل حصر وخارجها، وعمل أستاذاً زائراً في جامعات عالمية متخصصة.

مع أن قنواتى كان راهباً مسيحياً، فإنه كان غارقاً إلى أذنيه في دراسة الحضارة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى. أجاد الجمع بين أصوله الشرقية ودراسة المتعمقة لتاريخ الإسلام ومذاهبه، وبين ثقافة الغرب بما تحمله من مغايرة في أدوات التفكير والبحث. كتب في علم الكلام والتصوف الإسلامى، وفى الطب والصيدلة عند العرب، وألقى الكثير من المحاضرات في

جامعات عربية وأوروبية عن دور الفكر العربى في التراث الإنسانى. وشارك في مناقشة الكثير من الرسائل العلمية في مجال الفلسفة الإسلامية، وصرف معظم جهده العلمى على دراسة أعمال كل من ابن سينا وابن رشد، وله كتاب عن المؤلفات الكاملة لابن رشد في لغتها العربية، وترجماتها العبرية واللاتينية، وأعد في ١٩٧٨ قائمة ببليوجرافية عن ابن رشد، وله كتاب " حجة إيمان ابن رشد في ضوء الجدال بين فرح أنطون والشيخ محمد عبده، وأصدر في ١٩٥٠ كتابه " مؤلفات ابن سينا "، قدم له أحمد أمين وإبراهيم مدكور بأنه لا يصدر إلا عن رهبنة في العلم مساوية لرهبنة الدين. وصدر له " تاريخ الصيدلة والعقاقير في العصر القديم والعصر الوسيط "، و" المسيحيون في مصر ". كما شارك في عضوية اللجنة الدولية لنشر مؤلفات ابن رشد، وأسهم في تحرير الكتاب الذي أصدره المجلس الأعلى للثقافة عن آخر الفلاسفة العرب .

كلمنى الأب قنواتى باعتبارى - فيما أظن - صديقاً، أو قل تلميذاً، للأب جومييه، كلماته سريعة، مجاملة، لا تناقش، ولا تبدى رأياً، تنطوى - في غالبيتها - على أسئلة مثل: إزيك؟ عامل إيه؟ بتستفيد من مكتبة الدير؟ إلخ..

مرة وحيدة تحدث الأب قنواتى أمامى، وهو يتصفح عدد أخير من مجلة " ميديوى " التي يصدرها معهد الدراسات الشرقية التابع للدير. تحدث - بعفوية ساحرة - عن رحلته من الإسكندرية إلى لبنان وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة وغيرها من بلاد الله، وتوليه المسئولية

في دير الدومينيكان بشارع مصنع الطرابيش [ظنى أن التسمية مأخوذة من مصنع الطرابيش الذي كان الزعيم الراحل أحمد حسين قد أنشأه من تبرعات المصريين]

أذكر من كلمات الأب قنواتى تأكيده على الحوار - لا التصادم - بين الأديان والمذاهب والشعوب، ودعوته إلى ضرورة الترجمة. وكان رأيه أن الحضارة الإسلامية تسع الجميع، وأنها نتاج إسهامات مشتركة للمسلمين والمسيحيين. وظل مؤمناً بحوار الحضارات وليس صراعها. وأن الحضارة البشرية تجد مناخها الأنسب في التفاعل بين تلاقى التيارات والأديان والمذاهب.

كانت " ميديوى " تعبيراً عن تلك الدعوة، وكان رأيه أن نشاط حركة الترجمة في العصر العباسى أسهم في ظهور آخر الفلاسفة العرب إلى ابن رشد الذي وضع رحيله نقطة الختام .

وعلى الرغم من بساطة الأب قنواتى وطيبته، فإنى لم أكن أستطيع أن أعامله كأب حقيقى لى، مثلما كنت أعامل الأب جومييه. كنت في مجلس جومييه آخذ راحتى. أسأل، وأناقش، وأثرثر. أما قنواتى فقد كان يضع حاجزاً غير مرئى بينه وبين زواره، يعاملهم كأستاذ، ويشعرهم دوماً بأن عليهم ألا يجاوزوا موقف التلاميذ من الأستاذ.. ازيك؟ عامل إيه؟ كويس!.. وينصرف.

***

تعرفت في دير الدومينكان أيضاُ إلى مارك شارتييه.

حين قدم إلى مصر، جعل همه - منذ اليوم الأول - إلى معايشة الناس، والتخاطب معهم، بالإشارة أولاً، فلم يكن يعرف العربية، وإن أجاد الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ولغات

أخرى. ثم أحب شارتييه الأحياء الشعبية، واللهجة المصرية، والباعة الجائلين، وسندوتشات الفول والطعمية، والشاى الكشرى، وبالنعناع، وصوت الأذان، وغناء أم كلثوم، وأهازيج السحر.

أصارحك أن البساطة التي تحدث بها عن ظروفه الأسرية، وقوله عن أمه إنها تعمل غسّالة في باريس.. هذه البساطة أذهلتنى، وشردت في لحظات تأمل، لا إحساس بالدونية، ولا محاولة للمداراة، وإنما ذلك كذلك بالفعل.

كان يحرص - في أثناء زياراته إلى القاهرة - على الإقامة بعيداً عن الدير. يختار لإقامته أحد الأحياء الشعبية. يتردد على البيوت، يجلس على المقاهى، ينشئ صداقات، يدخل في مناقشات على الأرصفة ووسط الحوارى والأزقة، يتعلم العربية بالعامية المصرية - هى المدخل - في تقديره - للتعرف الحقيقى إلى شخصية المواطن المصرى البسيط. أدركت السر لما حدثنى عن نشأته الفقيرة في العاصمة الفرنسية.

زرت مارك شارتييه في كنيسة بولاق.

بدا من جولاتى معه داخل شوارع الحى الضيقة وحواريه، أنه قد استراح إلى الناس والمكان. ليس ثمة ما يدل على إحساسه بالغربة، أو الدهشة، أو التأمل. جرب المشاعر كلها بالتأكيد، فداخله الاطمئنان إلى ما حوله، البيوت القديمة المتلاصقة، الأرض المكسوة بتمازج

التراب والماء، البرك الآسنة، المقاهى والحرفيين والنسوة الجالسات في مداخل البيوت وألعاب الأولاد والنداءات والصيحات ومبادرة الحديث دون سابق معرفة.

كنت أشفق عليه صعوبة في نطق العامية المصرية، وإن لاحظت شعوره بالسعادة في كل كلمة، أو عبارة، يلتقطها من أبناء الحى، ويرددها، وعاب على معجم الأب جومييه [الفرنسية - العامية المصرية] أنه يخلو من تعبيرات كثيرة، يضمنها أبناء بولاق سياق أحاديثهم، وعرض على الأب جومييه أن يعينه على إعداد طبعة ثانية، مزيدة، من المعجم.

عرف شرب الشاى الأسود، وبالنعناع، والقهوة التركية، وأكل البامية والملوخية والمحشى، وحفظ الأمثلة والنكات والتعبيرات المميزة، وأتقن القعود متربعاً، والتردد على الغرزة، داخل الكوخ الخشبي ذى الباب الصفيح.

لم يعد يتردد على دير الدومينكان إلا للزيارة السريعة، أو لطلب كتاب من مكتبة الدير. معظم الوقت يقضيه في مخالطة البيئة التي اختار العيش فيها بصورة دائمة. تعلم العربية الفصحى، وفضل - لتعلم اللهجة العامية - أن يقيم في بيئة مفردات خطابها هى الأصدق تعبيراً عن الفئات الأدنى من المصريين.

ثم لاحظ رجال الدير أن مارك شارتييه قد انشغل بصداقات أبناء منطقة مصنع الطرابيش، وبصداقات أبناء حى بولاق - وكان يقضى أشهراً قليلة في كنيسة الحى - عن قضايا اللاهوت التي نذر لها نفسه.

اضطر شارتييه لأن يسافر إلى باريس، اختار له رؤساؤه كنيسة في قلب العاصمة الفرنسية، وحذروه من الالتقاء بالناس إلا لأداء الشعائر اللاهوتية.

ثم فاجأنى الأب جوميه بأن شارتييه قد انتصر على نفسه وعلى زملائه في آن. فقد هجر وظيفته، والتحق بوظيفة أخرى، تعنى برعاية العمال الجزائريين في فرنسا، وصارح رؤساءه - قبل أن يغادر الكنيسة للمرة الأخيرة - أن من ينذر حياته للناس، إنما ينذرها لله!

***

لم يكن جان فونتين من رهبان الدير. حل عليه ضيفاً لإتمام رسالة عن الموت والبعث في أدب توفيق الحكيم. نصحه المشرف على الرسالة - وهو أستاذ بجامعة السوربون - أن يلتقى الحكيم، وبنقاده ودارسيه في الجامعات المصرية، ويفيد من مكتبة الدومينكان التي تضم الأعمال الكاملة للحكيم، فضلاً عن معظم ما كتب عن حياته وفنه.

تصادقنا - جان فونتين وأنا - وجاوزت صداقتنا أسوار الدير إلى أحياء القاهرة، يشاهد فونتين، ويتأمل، ويسأل. أحاول أن أوضح ما قد يكون غامضاً. شاهدنا فيلم " الأرض " عن رواية عبد الرحمن الشرقاوى، وإخراج يوسف شاهين. أعجبه للغاية السيناريو والحوار والإخراج والمؤثرات الصوتية والتصوير والتمثيل . تأثر لأداء محمود المليجى في دور محمد أبو سويلم. قال:

- لو أنى مسئول عن جائزة كان أو الأوسكار، فسأمنحها لهذا الرجل!

أذهلتنى - أعنى التعبير - قراءات جان فونتان في الأدب العربى على امتداد عصوره، يناقش، يسأل، يجيب، يبدى الملاحظات، من خلال تأمل ووعى وفهم. كنت مطمئناً إلى

أنى قرأت الحكيم جيداً، وكنت قد قرأته بالفعل.. لكن ملاحظات جان فونتان أفادتنى بما يصعب إغفاله. أفادتنى كذلك مقارناته وموازناته، بين أعمال الحكيم وأعمال المبدعين العرب والأجانب. طالت مناقشاتنا، يبدى كل منا وجهة نظره، نتفق ونختلف، ونعود - بلا سأم - إلى بدايات تصورنا أنها - حسب التعبير المتوارث - قُتِلت بحثاً!. ومع أنه أجاد دراسة التراث الدينى بالكيفية نفسها، فقد كانت نظرته إلى اليقين الدينى أقرب إلى اللامبالاة، وربما الرفض. نبدأ، ولا ننتهى، في أحاديث الدين والخلق والمسير والجنة والنار والأنبياء وقصص الكتب المقدسة، وسير الأولياء والقديسين والصحابة والتابعين. لم يكن يجد في ذلك كله ما يهبه ثقته. يقينه أنه لا شيء يعقب الموت إلا العدم، لا مساءلة ولا حساب ولا عقاب، تنتهى الحياة فيسدل الستار، ولا شيء بعد. البعث يعقب الموت في روايات الحكيم، لكن العدم هو ما يحدث بعد نهاية الأجل.

قال له الأب جومييه بلهجة مداعبة:

- هل اخترت حياة الرهبنة كى تتفرغ للدراسة، أم لتنشغل بالدين؟

حرك جان فونتان أصابع يده، دلالة الموافقة على المعنيين.

أردف الأب جومييه بلهجته المداعبة:

- أخشى أن محمد جبريل أشد تديناً منك، رأيى أن تتبادلا موقعيكما!

***

لم يكن أرنست بانيرت راهباً، لكنه نزل ضيفاً على الدير للإقامة، وللإفادة من مكتبته الهائلة.

لولا بياض وجه الرجل المشرب بحمرة، وعينيه الزرقاوين، ما اختلف بجلبابه ومداسه عن العشرات من المترددين على الموالد والأضرحة والمقامات والمنشدين في الحضرة وحلقات الذكر.

كانت العامية المصرية هى لغة تخاطبه مع الآخرين. لم يطعمها بكلمات من لغته الألمانية، عكس ما يفعله بعض متعلمينا حين يطعمون لغتهم العربية - لدواعى تأكيد الثقافة! - بالكثير من الكلمات الأجنبية.

وكان الرجل يجد في السحر، وفى المردة والعفاريت والغيلان وغيرها مما يتحرك في مخاوف الناس وحياتهم، شبيهاً لما تحياه شعوب العالم الأخرى. الاختلافات مبعثها البيئة الثقافية والاجتماعية، وملامسة المرء للحضارة أو المدنية، والغريب أنه كلما انتسب شعب إلى حضارة أعمق، كانت سيطرة الخرافات والأساطير بالعمق نفسه.

لم يكن بانيرت يؤمن بالمعتقدات الخرافية أو الأسطورية لعامة المصريين[كلمة عوام خطأ]، لأن المعتقدات تشمل الكثير من فئات الشعب المصرى، حتى مقام الحاكم. لكنه كان يجتهد في دراسة هذه المعتقدات، ويحاول فهمها، دون أن تتخلى ملامحه عن بساطتها

وحيويتها، وابتسامتها الطيبة. لم أره يتحدث عنها بسخرية أو ما شابه، فالإنثربولوجيا في كل الدنيا حافلة بالخرافة، وما لا يمكن تصديقه!

من أهم الكتب التي ألفها بانيرت " المزارات والأضرحة في مصر". تابعت إعداده له، رحلاته في الأقاليم المصرية، تردده على أضرحة آل البيت والأولياء، زيارته الأديرة والكنائس والمقامات والأضرحة، مشاركاته في الموالد والجلوات، اندساسه في الحضرات وحلقات الذكر، تردده على سرادقات الإنشاد والتسابيح. يقضى النهار بطوله في جمع المادة وتصنيفها، وتقسيمها إلى أبواب وفصول، يراجع ما كتب، يضيف، يحذف، يتأكد من سلامة اللغة والمعنى. ربما أفاد من آراء رهبان الدير، قد تغيب معلومة، أو توجد معلومة خاطئة.

***

سافرت إلى الخليج في رحلة عمل طويلة.

كانت زيارة دير الدومينكان أول ما حرصت عليه، بعد أيام من عودتى إلى القاهرة. بدا كل شئ مختلفا عما ألفته. احتضننى عم رمضان بشيخوخته المتقدمة، الواضحة، اكتفى الأب قنواتى بإلقاء التحية، وهز رأسه دلالة أنه تذكرنى.

بدا على الأب جوميه تقدم السن من شحوب البشرة، وبطء الحركة، وخفوت الصوت، والشعر الأبيض القليل المتبقى فوق الرأس، والتجاعيد حول العينين والفم. اعتذر بأنه لم يقرأ في الأدب. اللاهوت - كما قال لى - يأخذ كل وقته، حتى " ميديوى " لم يعد له صلة بها، وقال لى: أنا أعد نفسى لرحلة الآخرة، وهى في حاجة إلى الكتاب المقدس والصلوات والتأمل،

وليس إلى القصائد والروايات. وقال لى إن مارك شارتييه سافر إلى الفاتيكان، ثم إلى فرنسا. أما جان فونتان فقد استقر في تونس، وحصل على عضوية اتحاد الكتّاب التونسيين.

وأنا أغادر الباب الصغير المفضى إلى شارع مصنع الطرابيش، قلت:

- أقول وداعاً أو إلى اللقاء؟

قال بصوته الشاحب:

- قد أسافر إلى جنوب فرنسا لقضاء آخر الأيام.

ثم وهو يهز رأسه:

- هناك موطنى كما تعلم!

عجزت - في زيارة لتونس - عن الوصول إلى حيث يقيم جان فونتان، وعرفت أن شارتييه قد اختار الإقامة في أحياء العمال المغاربة بباريس، وحرصت على متابعة أخبار الأب جومييه من أصدقائه، أوصيهم أن يزوروه في الجنوب الفرنسى.

سألت صديقى الدكتور أيمن فؤاد سيد، عقب آخر زيارة له إلى باريس:

- ما أخبار الأب جومييه ؟

قال:

- لم أعد ألتقى به، وإن عرفت أنه يقيم الآن في دار للمسنين في الجنوب الفرنسى!

ع البحرى

أحمد طوغان

قرأت نبأ رحيل أحمد طوغان عن حياتنا في الشريط الإخبارى، أسفل شاشة التليفزيون. قفزت بى الذاكرة إلى أكثر من خمسين عاماً. عدت إلى أحمد عباس صالح. وجد في كتاباتى ما يستحق التشجيع، ترددت على دور الصحف، بيدى بطاقات تزكية، لكن الاعتذار واجه ما كنت أرجوه. قبل أن يتملكنى اليأس، أعطانى عباس صالح بطاقة إلى نعمان عاشور. ذهبت إليه في دار الجمهورية. قدمنى إلى الفنان التشكيلى أحمد طوغان. رغم فارق السن، والهيبة التي مثلت حاجزاً بينى وبين من يشغلنى الطموح لأكون واحداً منهم، فقد عكست ملامحه ترحيباً، ومشاعر صداقة حقيقية.

سأل عن العمل الذي أتمناه في الصحافة؟

قلت - كعادة المصريين - : أى شيء!

نقر طوغان على باب مغلق، ودخل، وأنا وراءه.

كان الجالس وراء المكتب سعد الدين وهبة. قدمنى إليه أديباً شاباً، زكاه أحمد عباس صالح، فلابد أنه يستحق التشجيع.

يبدو أنى كنت متهيباً للغاية. قال لى سعد الدين وهبة: بمن التقيت؟..

قلت: نجيب محفوظ ويوسف إدريس ومحمد عودة ونعمان عاشور وأحمد عباس صالح ومحمود تيمور و..

قاطعنى: لا تقف أمامهم متهيباً هكذا.

قرأ لى سعد الدين وهبة قصة لى، أتصور انه أعجب بها، فقد فتح باب الغرفة المجاورة، وقدمنى إلى الجالسين فيها: محمد جبريل.. زميل جديد.

بدأ - في اللحظة التالية - تعرفى إلى الصحفى الكبير محمد حمودة، وإلى الأصدقاء: جلال السيد ومحفوظ عبد الرحمن ووحيد النقاش ومحمود خطاب ونفيسة حرك. عرفت أن أول عمل لى في الصحافة هو تقديم أخبار صغيرة، فنية وأدبية واجتماعية، تنشر كل صباح، في صفحة يشرف على تحريرها سعد الدين وهبة.

كانت الموافقة خيارى الوحيد.

فتحت الباب، طالعنى أحمد طوغان بعوده النحيل، وملامحه المفعمة بالحيوية، سأل بلهفة الصديق: هل وافق؟

قلت في تأثر: أرجع موافقته إلى تحمسك لتقديمى!

أدين للإنسان، والفنان الكبير أحمد طوغان بفضل مساندته لى في أولى خطوات حياتى الصحفية، أصعب الخطوات.

رحمه الله!

محمد جبريل

ولد في الإسكندرية في ١٩٣٨/٢/١٧ * عمل بالصحافة منذ ١٩٦٠ . بدأ محررًا في القسم الأدبي بجريدة الجمهورية. ثم انتقل إلى جريدة " المساء * عمل في الفترة من يناير ١٩٦٧ إلى يوليو ١٩٦٨ مديراً لتحرير مجلة " الإصلاح الاجتماعى " الشهرية، وكانت تعنى بالقضايا الثقافية * عمل - من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٦- خبيراً بالمركز العربى للدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والتعمير . وتولى مع زملائه تدريب الكوادر والإعداد لإصدار أول عدد من جريدة " الشعب " الموريتانية ١٩٧٦ * عضو اتحاد الكتّاب المصريين * عضو جمعية الأدباء * عضو نادى القصة * عضو نقابة الصحفيين المصريين * عضو اتحاد الصحفيين العرب * ظل عضواً في لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة لمدة ثمانى سنوات * انضم في العام المضى إلى عضوية لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة * حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام ١٩٧٥ عن كتابه " مصر في قصص كتّابها المعاصرين" * نال وسام العلوم والفنون والآداب من الطبقة الأولى عام ١٩٧٦ * تم تكريمه من مجلة "ديوان العرب " الإلكترونية في ٢٠٠٦ مع عدد من مثقفى الوطن العربى * نال جائزة التمايز من اتحاد الكتّاب المصريين عام ٢٠٠٩ * عمل مديراً لتحرير جريدة " الوطن " العمانية في الفترة من يناير ١٩٧٦ إلى يونيو ١٩٨٤، ورئيساً لتحرير " كتّاب الحرية " في الفترة من إبريل ١٩٨٥ إلى يناير ١٩٨٩ * له ٣٧ رواية، و١٦ مجموعة قصصية، و١٦ كتاباً في السيرة الذاتية والدراسات * درّس الدكتور شارل فيال كتابه " مصر في قصص كتابها المعاصرين " على طلاّبه في جامعة السوربون * فازت روايته " النظر إلى أسفل " بجائزة أحسن رواية في معرض القاهرة الدولى للكتاب سنة ١٩٩٣ * اختيرت روايته " رباعية بحرى " ضمن أفضل مائة رواية عربية في القرن العشرين * ترجم العديد من رواياته وقصصه القصيرة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والماليزية * شارك في الكثير من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية داخل مصر وخارجها * صدر عنه ١٥ كتاباً، وملفات عن حياته وأعماله في " الثقافة الجديدة " المصرية و" الرافد " الإماراتية و" الموقف

الأدبي " التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب، و"أمواج " الإلكترونية * صدر عنه العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه * انتخب منذ مارس ١٩٩٩ إلى مارس ٢٠٠١ نائباً لرئيس اتحاد كتاب مصر .

مؤلفات محمد جبريل:

١ - تلك اللحظة (مجموعة قصصية) لجنة النشر للجامعيين ١٩٧٠

٢ - الأسوار (رواية) هيئة الكتاب - الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ - مصر في قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة التشجيعية - ١٩٧٢ هيئة الكتاب

٤ - انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ - مكتبة مصر - ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية.

٥ - إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر - الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية.

٦ - مصر.. من يريدها بسوء؟ (مقالات)١٩٨٦ - دار الحرية.

٧ - هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ - هيئة الكتاب - ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية.

٨ - من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى١٩٨٨ - هيئة الكتاب - الطبعة الثانية ١٩٩٥ - مكتبة مصر.

٩ - قاضى البهار ينزل البحر (رواية)١٩٨٩ - هيئة الكتاب.

١٠ - الصهبة (رواية) ١٩٩٠- هيئة الكتاب.

١١ - قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ - روايات الهلال.

١٢ - النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩١ - هيئة الكتاب.

١٣ - الخليج (رواية) ١٩٩٣ - هيئة الكتاب.

١٤ - نجيب محفوظ.. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة - الطبعة الثانية ٢٠٠٦ مكتبة مصر.

١٥ - اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال.

١٦ - السحار.. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر.

١٧ - آباء الستينيات.. جيل جنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر.

١٨ - قراءة في شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة.

١٩ - زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب.

٢٠ - الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر - ترجمت إلى الإنجليزية- الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ هيئة الكتاب.

٢١ - حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ - هيئة قصور الثقافة.

٢٢ - سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب - ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية.

٢٣ - انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب - ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية.

٢٤ - أبو العباس، رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧

٢٥ - ياقوت العرش، رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧

٢٦ - البوصيرى، رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨

٢٧ - على تمراز، رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ - مكتبة مصر.

٢٨ - بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩ روايات الهلال.

٢٩ - مصر المكان (دراسة في القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة -الطبعة الثانية ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الثالثة٢٠١٢ دار الكتب والوثائق القومية.

٣٠ - حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة.

٣١ - الحياة ثانية (رواية تسجيلية)١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة.

٣٢ - حارة اليهود (مختارات قصصية)١٩٩٢ هيئة قصور الثقافة.

٣٣ - رسالة السهم الذي لا يخطئ (مجموعة قصصية)٢٠٠٠ مكتبة مصر.

٣٤ - المينا الشرقية (رواية)٢٠٠٠ مركز الحضارة العربية.

٣٥ - مد الموج.. تبقيعات نثرية (رواية)٢٠٠٠ مكتبة مصر.

٣٦ - البطل في الوجدان الشعبي المصرى (دراسة)٢٠٠٠ هيئة قصور الثقافة.

٣٧ - نجم وحيد في الأفق (رواية) ٢٠٠١ مكتبة مصر.

٣٨ - زمان الوصل (رواية)٢٠٠٢ مكتبة مصر.

٣٩ - موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية)٢٠٠٢ هيئة قصور الثقافة.

٤٠ - ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (رواية)٢٠٠٣ روايات الهلال,

٤١ - حكايات الفصول الأربعة (رواية)٢٠٠٤ دار البستانى.

٤٢ - زوينة (رواية)٢٠٠٤ الكتاب الفضى.

٤٣ - صيد العصارى (رواية)٢٠٠٤ دار البستانى.

٤٤ - غواية الإسكندر (رواية) ٢٠٠٥ روايات الهلال.

٤٥ - الجودرية (رواية) ٢٠٠٥ المجلس الأعلى للثقافة.

٤٦ - رجال الظل (رواية) ٢٠٠٥ دار البستانى.

٤٧ - ما لا نراه (مجموعة قصصية) ٢٠٠٦ - هيئة قصور الثقافة.

٤٨ - مواسم للحنين (رواية) ٢٠٠٩ دار البستانى.

٤٩- الصوت الهامس يعلو (دراسة نقدية سوسيولوجية) ٢٠٠٧ رابطة الأدباء بالكويت.

٥٠ - كوب شاى بالحليب (رواية) ٢٠٠٧ دار البستانى.

٥١ - سقوط دولة الرجل (دراسة في القصة والرواية)٢٠٠٧ دار البستانى.

٥٢ - أهل البحر (رواية) ٢٠٠٧ - هيئة الكتاب ٢٠٠٧

٥٣ - ملامح مصرية (مقالات) ٢٠٠٨ كتاب الجمهورية.

٥٤ - البحر أمامها (رواية)٢٠٠٩ روايات الهلال.

٥٥ - للشمس سبعة ألوان (قراءة في تجربة أدبية)٢٠٠٩ كتاب الجمهورية.

٥٦ - أخبار الوقائع القديمة (مجموعة قصصية)٢٠٠٩ هيئة قصور الثقافة.

٥٧ - في الليل تتعدد الظلال (مجموعة قصصية) ٢٠١٠ كتاب اليوم.

٥٨ - مصر الأسماء والأمثال والتعبيرات (دراسة) ٢٠١٠ كتاب الجمهورية.

٥٩ - صخرة في الأنفوشى (رواية) ٢٠١٠ روايات الهلال

٦٠ - الحنين إلى بحرى (سيرة مكان)٢٠١١ كتاب الهلال.

٦١ - باب العزيزية (مجموعة قصصية) ٢٠١٢ هيئة قصور الثقافة.

٦٢ - نعم.. مصر هى بيت أبى (مقالات)٢٠١٢ كتاب الجمهورية.

٦٣ - عناد الأمواج (رواية) ٢٠١٢ روايات الهلال

٦٤ - ديليت (رواية) ٢٠١٣ كتاب الرافد

٦٥ - مدينة تخصه (رواية) ٢٠١٣ دار الكتب والوثائق القومية

٦٦ - أحمد أنيس.. ظلى الضائع (رواية) ٢٠١٣ روايات الهلال

كتب عن جبريل:

الفن القصصى عند محمد جبريل - مجموعة من الباحثين - مكتب منيرفا بالزقازيق - ١٩٨٥

دراسات في أدب محمد جبريل - مجموعة من الباحثين - مكتب منيرفا بالزقازيق - ١٩٨٦

البطل المطارد في أدب محمد جبريل - د . حسين على محمد - دار الوفاء بالإسكندرية - ١٩٩٩

فسيفساء نقدية : تأملات في العالم الروائى لمحمد جبريل - د . ماهر شفيق فريد - دار الوفاء بالإسكندرية - ١٩٩٩

محمد جبريل .. موال سكندرى - فريد معوض وآخرون - كتاب سمول - ١٩٩٩

استلهام التراث في روايات محمد جبريل - د . سعيد الطواب - دار السندباد للنشر - ١٩٩٩

تجربة القصة القصيرة في أدب محمد جبريل - د . حسين على محمد - كلية اللغة العربية بالمنصورة ٢٠٠١ - الطبعة الثانية : أصوات معاصرة - ٢٠٠٤

فلسفة الحياة والموت في رواية " الحياة ثانية " - نعيمة فرطاس - أصوات معاصرة - ٢٠٠١

روائى من بحرى - حسنى سيد لبيب - هيئة قصور الثقافة - ٢٠٠١

محمد جبريل : مصر التي في خاطره - حسن حامد - أصوات معاصرة - ٢٠٠٢

سيميائية العقد في رواية " النظر إلى أسفل " لعبد الرحمان تبرماسين - العطرة بن دادة - أصوات معاصرة - العدد ١١١

التراث والبناء الفنى في روايات محمد جبريل - د . سمية الشوابكة - هيئة قصور الثقافة - ٢٠٠٥

المنظور الحكائى في روايات محمد جبريل - د . محمد زيدان - أصوات معاصرة - ٢٠٠٥

بنية الخطاب الروائى في أدب محمد جبريل : جدل الواقع والذات : النظر إلى أسفل نموذجاً - د . آمال منصور - أصوات معاصرة ٢٠٠٦

محمد جبريل ألق الوجدان المصرى - فرج مجاهد - أصوات معاصرة ٢٠١٢

فهرست

الصفحة

التقديم (أيامُ جبريل القاهريَّة)	١
المقدمة (قبل أن تقرأ)	١٥
أيامي الأولى	١٧
في القلب منازل	٢٤
سور الأزبكية	٥٣
ذلك الجيل	٦٠
البخل تهمة يواجهها هؤلاء الأدباء	٧٦
أصداف	٨٦
ابن شفيقة وبوح الأسرار	١٣٤
رهبان يدرسون الحضارة الإسلامية	١٤٩
ع البحر	١٨٢
محمد جبريل	١٨٤

كنت دائم التردد على دار الكتب القديمة بباب الخلق. أصل في حوالى العاشرة صباحاً، وأنصرف في الثانية بعد الظهر، مع رئيس إدارة التراث - آنذاك - الصديق فهيم شلتوت. حسبنى رجال الأمن موظفاً في الدار، فأهملوا مطالبتى بإثبات الشخصية.

كانت مصر - إلى أقصى امتداد الدلالات - هى شاغل اهتماماتى. حتى روايتى الأسوار جاوزت اللحظة إلى اتصال التاريخ المصرى، وحرصت على أن تكون الصفة المرادفة لاسم الرواية: لحظات مصرية.

تتردد في دفع عشرات القروش في رواية، وندفع - في رضى - بضعة جنيهات عندما نشاهد الفيلم المأخوذ عن الرواية نفسها. النقاد يكتبون عن الأعمال الأدبية من خلال مشاهدتهم للأعمال الدرامية المأخوذة عنها. حتى أنيس منصور - الذي يعد قارئاً متفوقاً - ناقش رواية نجيب محفوظ خان الخليلى من خلال إعدادها المسرحى!